إقرأ

مع طه حسين ٢

٢

سامى الكيالى

دار المعارف بمصر

٦

إقرأ

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر

سامي الكيالي

مع طه حسين

٢

اقرأ ٣٠١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠١ – يناير سنة ١٩٦٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الإهداء

إلى خصوم الدكتور طه
— إذا بقى له خصوم —
أهدى هذه الصفحات

« س »

١

توطئة

. . . صدر لى فى عام ١٩٥٢ رسالة صغيرة عن جبّار الفكر العربى الدكتور طه حسين نشرت فى سلسلة اقرأ[١]، ألممت فيها إلماماً موجزاً بمراحل حياته وما رافق هذه الحياة من أحداث تتصل اتصالا وثيقاً بحياتنا العقلية .

وقد مرّت سنوات تنيف على العشر شهد خلالها العالم العربى أحداثاً فذة فى السياسة ، فى التفكير ، فى نمط الحياة ، فى صلاته مع الغرب والشرق ، فى مقاييس الأدب ، فى قيم الأخلاق ، فى الاتجاه الثورى التحررى . . .

وقد كان لطه حسين آراؤه فى الكثير من هذه الأحداث كمفكر وأديب وصاحب رسالة . . .

وإذ فاتنى تدوين الكثير من مراحل هذه الحياة التى تنبض بمختلف الظواهر التى ترمز إلى حيوية المفكر العربى فى سيره وتطوره وعدم إخلاده إلى الركون . . . فلن يفوتنى تدوين بعض هذه الملامح والصور فى هذه الرسالة . . . وهى صور وكلمات تناثرت فى الصحف والمجلات ، القديمة منها والحديثة ، رأيت من الأمانة للتاريخ إثباتها فى هذه العجالة ، فقد تفيد الكثيرين ممن سيكتبون عن هذا الإنسان العبقرى الذى يدين له الجيل العربى بالكثير من آرائه الحرة ودراساته المنهجية فى الأدب العربى ،

---

(١) العدد ١١٢ مايو عام ١٩٥٢ ، وقد أعيد طبعه أخيراً .

وآداب الأمم الحية — تلك الدراسات التى قلبت مناهجنا الأدبية رأساً على عقب . ووجّهت حياتنا العقلية وجهة صحيحة . . .

٢

مكر الأصدقاء

قبل أن أبدأ بنشر هذه الجذاذات ، يسرنى أن أشرك القارئ معى بنشر الرسالة الخاصة التى وصلت إلى منه عقب صدور عدد سلسلة اقرأ . . .

قال حفظه الله :

٥ يونيو ١٩٥٢

صديقى العزيز

كانت مفاجأة كريمة، هذه التى بلغتنى بها فى أول الشهر الماضى . فلم أكن أعرف أنك تحسن إضمار المكر وإتقانه حتى فاجأتنى سلسلة اقرأ بهذه الرسالة الكريمة التى كتبتها عنى وأهديتها إلى زوجى .

وقد عرفتك دائماً أخاً كريماً وصديقاً حميماً وخليلاً لا يحرص على شىء كما يحرص على الوفاء . نشكر الله لك ما أسديت إلى زوجى وإلىّ من خير . وما أهديت إلينا من معروف . وغفر الله لك ما قدمت إلىّ من ثناء لا أدرى أنى له أهل . ولكنك فاضل متفضل . وهيهات أن ينهض شكرى بحقك .

فتقبل معذرتى وأصدق تحياتى وأعمق مودتى .

طه حسين

وما كانت تلك الرسالة . علم الله . إلا الوفاء لرسالة الأدب . وما كان لى فيها إلا تسجيل نبضات من حياة أديب عظيم . لعب .

بجرأته وإيمانه وعمق ثقافته . أكبر دور فى تاريخنا الفكرى الحديث .

وما أعذب هذا المكر . سيدى العميد . حين يكون طريقه الوفاء لقدسية الفكر الحر وقدسية الحرف والكلمة .

٣

الكاتب الحرّ

عرف الدكتور طه حسين أنه كاتب حر . وهو ذو نزعة إنسانية صارخة ، يريد الخير والحياة لأبناء وطنه ، وهو فى مقالاته وأحاديثه يدعو إلى تحرير المصرى من الجهل والفقر والمرض ، وفى سبيل ذلك أخذ يكتب قصص الكادحين وقصص النفوس المعذبة ، وقد فسّرت هذه النزعة — ولا سيما عند المترفين الذين ينعمون بالدمقس والحرير ويعيشون مرفّهين فى الأبّهاء والقصور — فسّرت تفسيرات ملتوية ، ولهذا ، فقد تجهم القصر فى وجه طه حسين ، وأصبح من الكتاب المغضوب عليهم ، ولولا شخصيته الفذة ، ومكانته السامقة فى مصر وفى غير مصر لكان ممن عضّهم الجوع بنابه ، ولتعرّض للأحكام التى تودى به إلى السجن ، ولكن شخصيته القوية الكبيرة هى التى دفعت عنه هذا البلاء . . .

وحين منعت الحكومة طبع كتبه فى مصر طبعت فى لبنان .

وبالرغم من شتى صنوف الأذى الذى واجهه ظلّ عند عقيدته ، فلم يكتب مقالا ولم يلق محاضرة إلا عبر فيها أصدق تعبير عن الشقاء الذى يحيط بأبناء وطنه ، وعن الوسائل التى ترفع عنهم هذا الشقاء .

صورة لن أنساها أبدًا : فحين أهبط القاهرة يكون الدكتور طه فى طليعة من أسعى إلى زيارتهم . . . وفى إحدى سفراتى ، وبعد يوم من وصولى ، سألت عنه لأحدّد موعد الزيارة فعلمت أن خرج لتوّه من

المستشفى بعد إجراء عملية الزائدة — كان ذلك سنة ١٩٣٢ إذا لم تخنى الذاكرة — وأهرع إلى منزله فى هليوبوليس لأعوده ، ولا أكاد أطرق الباب حتى تستقبلنى زوجه بلطف مشوب بترق مبطّن . وهى إذ تعلم مدى مودتى سمحت لى بالزيارة بعد تردد ، ثم همست فى أذنى بأن لا أطيل الزيارة . وحرصى على راحته ، علم الله ، لا يقل عن حرصها . . . وأدخل عليه فأحييه وأستفسر عن صحته فيستقبلنى أحر استقبال ويشكرنى على هذه الزيارة . ويسأل عن أصدقائه فى سورية وأقوم لأودعه بعد أن اطمأننت على صحته . . . فيستبقينى ، ولا يكاد يدور الحديث عن الأدب وعن الخصومة القائمة بين القدماء والمحدثين حتى يتطرق إلى موضوع شائك — إلى الفقه الرومانى والفقه الإسلامى ، فأخذ يفيض بالحديث عنه . فكان موقفى وهو يتحدث ، وهو ممدّد فى السرير من أحرج المواقف : حرصى الشديد على صحته وعدم إرهاقه بالكلام ، واستمتاعى غير المحدود بعمق الحديث وجدته وطلاوته . . .

وتمر الثوانى والدقائق مسرعة أو بطيئة لا أعلم وهمسات ربة البيت بأن لا أطيل الزيارة تقرع فى أذنى وتثير كل خالجة من خوالج ذاتى — كان العرق يتصبب منى وأنا مأخوذ بنشوة لا حدود لها : أأشير عليه بالتوقف ؟ وكيف أشير ؟ وهل فى وسعى أن أقف السيل المتدفق ؟

يا لتلك اللحظات التى عشتها بين متعة وخجل فى زيارة طارئة دامت قرابة العشرين دقيقة لم ينقطع خلالها حديثه العذب ، وأقسم لو أنى دونت ما فاض به قلبه لخرجت بأتم محاضرة فى موضوع من أعوص الموضوعات . وحمدت الله أنه كان فى تلك الفترة فى غاية النشاط ، وودعته بعد أن تمنيت له الشفاء القريب ليستأنف جهاده الفكرى . واعتذرت للسيدة بأن الذنب فى طول الزيارة لم يكن ذنبى ، فودعتنى بامتعاض مزجته بابتسامة

باريسية قلقة وعادت إليه لتلومه . . .

ومَنْ يدرى ؟... فربما أغلقت الباب ، فى ذلك اليوم ، فى وجه جميع زائريه من أصدقائه وزملائه وتلاميذه ، وربما حتى فى وجه أقربائه وذويه ! ! . .

٤

أثره فى وزارة المعارف

فى الفترات التى تسلّم فيها وزارة المعارف من ١٣ يناير عام ١٩٥٠ حتى ٢١ يناير عام ١٩٥٢ استطاع خلالها أن يقوم بأعمال فذة فى سبيل نشر التعليم وأن يحقق المبدأ الذى آمن به ودعا إليه وهو أن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء . . .

وحين ترك الوزارة أوى إلى بيته يعيش حياته العلمية الهادئة ، وكان قد بدأ بكتابة الجزء الثانى من كتابه « الفتنة الكبرى : على وبنوه » فشغل نفسه بتلك الأحداث الجسام التى مرّت بها الأمم الإسلامية ، عن هذا اللغط الذى كان يسود مجتمعات القاهرة .

ومن يدرى فربما كان وهو يتابع صور الأحداث ، كانت تتراءى له صور من النفس البشرية فى صراعها الدامى ، وإذا هى هى لم تتغير ، وإن اختلفت فى منازعها ومقاصدها .

ويمضى فى حياته الهادئة ، يغوص فى بطون الكتب والتاريخ ، ثم يستخلص هذه المذاهب والآراء التى يبسطها لقرائه ، حلوة سائغة ، بأسلوبه السهل الممتع .

وتمر مصر فى سيرها القلق المضطرب وقد تآكلتها الهواجس تنظر إلى غد مشرق فلا ترى بصيص نور ولا سيما بعد النكسة الكبرى التى أصابت الأمة العربية فى حرب فلسطين . . .

فساد فى الحكم ، ووزراء مغلوبون على أمرهم . وملك يحكم ارض الكنانة برعونته وغواياته ، وشعب هدّته الأحداث يبحث عن قائد حكيم ينقذ السفينة من الغرق .

وبينا مصر فى غمرتها وقلقها إذ بحادث جسيم دوى فى أقطار الدنيا . هزّ مصر وهزّ العالم العربى . وكان بدء انطلاقة ثورة كبرى .

ذلك الحادث هو ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ التى رسمت لمصر وللجيل العربى القلق خططاً ثورية ومناهج تحررية تختلف كل الاختلاف عن المناهج التى سارت عليها فى العهد البائد ، وكادت تودى بها إلى الدمار .

٥

ركود الأدب

كان لم يمض على الثورة غير شهرين .

وكان مغتبطاً كل الاغتباط بزوال العهد الملكى وما جر وراءه من عسف وطغيان وفساد .

وكان يقضى يومه فى بيته الهادئ مع كتبه ودراساته .

يستقبل بين فترة وفترة الصفوة المختارة من أصدقائه الأوفياء يتحدثون عن الأيام السود التى مرت بها مصر . ولا يكادون يضيقون بهذه الأحاديث حتى تجتذبهم شئون الفكر .

ويدور الحديث عن محنة الأدب والركود الذى اعترض الحياة الأدبية فى السنوات الأخيرة . ويستمعون إلى رائد الفكر الحر فيحصر أسباب الركود فى ثلاث ظواهر :

أولاها : الظروف السياسية وما تأتى به من فرض الرقابة على النشر . وقد استغرقت هذه الرقابة أكثر من خمس عشرة سنة فى أقل من ربع

قرن . ورأيه فى هذا الصدد : أن الحرية هى قوام الحياة الأدبية الخصبة فإذا ذهبت أجدب الأدب وعقم الفكر .

والثانية : مشكلة النشر ، فكثير من الشباب يكتبون فلا يجدون قبولا من الناشرين ولا تشجيعاً من شيوخ الأدب .

والثالثة : ضعف التعليم الأدبى فى مصر . فالأدب يدرس فى المدارس والمعاهد والجامعات على نحو يحزن أكثر مما يسرّ . وإنتاج الأساتذة ضعيف . والمتخرجون فى أقسام اللغة العربية بالجامعات لا يعرف بعضهم كيف يبحثون فى كتاب الأغانى لأنهم لم يسمعوا بفهرست الأغانى الذى وضعه « جويدى » .

ويكثر الجدل حول هذه الموضوعات وغيرها . ويستمع لأصدقائه فى جو من المناقشة الهادئة التى تتخللها النكتة المرحة التى تأنس بها نفسه .

ويتوافد عليه الزائرون من المشرق والمغرب . علماء وأدباء ومستشرقين ومفكرين وتلامذة يحملون أطروحاتهم للاستضاءة برأيه . ومع أنه مثقل دائماً بالكثير من أعمال الفكر . وبالتزامات اجتماعية لا محيص له عنها ، أو التفلت منها ، فلا يرد أحداً ، فيستقبل ضيوفه برحابة صدر ، ويستمع إلى تلامذته بوعى وصبر . ويفخر بهم أنهم سلكوا الطريق السوىّ والمنهج الذى وضع أسسه حتى إذا ما تباينت وجهات النظر وضلت أفهامهم بين لهم الصواب وشرح المآخذ برفق وحنو ، فيخرجون وهم جد مغتبطين بهذه اللقاءة التى قلبت الكثير من مفاهيمهم . فيعودون للدرس والبحث على ضوء ما رسمه لهم من توجيهات وإشارات .

٦

سفره إلى البندقية لحضور مؤتمر الفنانين بدعوة من الأونسكو وانتخابه مقرراً

وأمضى صيف هذا العام على غير عادته فى مصر .

كانت الأحداث بعد الثورة قد جعلته يتريث فى السفر إلى الخارج لقضاء فصل الصيف .

فلما استقرت الأحداث . واطمأن إلى مصير الثورة حزم أمتعته وقرر السفر . . .

وأمتعته . على الأكثر . بعض المراجع لكتاب يؤلفه . . .

وقد أنجز أكثر كتبه فى جبال سويسرة وفرنسا وإيطاليا.

وكان عليه أن ينجز كتاب « الفتنة الكبرى » فحمل معه طائفة من المراجع ولا سيما بعض كتب الشيعة لعلاقة الموضوع بالإمام على رضى الله عنه — حمل معه « الفصول المهمة فى معرفة الأئمة » للشيخ نور الدين على ابن حمد بن الصباغ . وفرق الشيعة للنوبختى . وبحار الأنوار للعلامة المجلى محمد بن باقر وبضعة كتب تتصل بالموضوع .

وما كاد يركب متن البحر حتى يتلقى دعوة من الأونسكو لحضور مؤتمر الفنانين الدولى الذى تقرر عقده فى البندقية . واختياره مقرراً للجنة الأدبية — هذا المؤتمر الذى اشتركت فيه ثلاث وثلاثون دولة .

ولاختياره مقرراً للجنته الأدبية دلالته . فقد رحبت الصحافة الأدبية ورجالات الفكر بهذا الاختيار أجمل ترحيب .

ونشرت الصحيفة الإيطالية الكبيرة «مومنتو ميرا» بتاريخ ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٢ مقالا رائعاً عن الدكتور طه حسين بقلم السنيور جيوافرامى فراري بعنوان: «الكاتب الضرير والأب الروحى لمصر الحديثة: طه حسين باعث الثورة التي كافح من أجلها منذ حداثة سنه . .

ومما جاء فى صلب هذا المقال :

« يعقد الآن مؤتمر الأونسكو دورته بالبندقية. ومقرر اللجنة الأدبية الكاتب المصرى طه حسين ملهم الثورة الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى مصر الآن . . .

« وطه حسين عضو فى الأكاديمية الإيطالية بروما، وعضو مراسل لأكاديمية الآداب الرفيعة بباريس ، والمهمة الخطيرة التي عهدت إليه فى المؤتمر الدولى المنعقد الآن بالبندقية توطد دعائم صيته الذائع فى أرجاء العالم باعتباره أديباً وفيلسوفاً » .

وبعد أن سرد ملخص تاريخ حياته وكتبه وأسلوبه قال :

« لقد كان من ظلم بعض ظروف الحياة أن زال عن طفل كل أمل فى الاحتفاظ ببصره .»

« وطه حسين إذ يذكر بصره المفقود يصيح من أعماق سجنه إلى شعبه بالثورة حتى لا تفقد أبصار بريئة أخرى لأطفال صغار . وقد استجاب المصريون لصيحته . ولكن طه حسين لم يتجه إلى المصريين وحدهم . بل تجاوزهم إلى الإنسانية كلها. وقد أثار إعجاباً بعيد الأثر فى أوربا . وحماسة شديدة فى أمريكا حتى إن الكاتب دونالد روبنسن فى مؤلفه عن أشهر الرجال المائة الذين هم على قيد الحياة — عده بين العشرة الذين هم أعمق الأثر فى الحضارة العربية » .

٧

خطابه فى المؤتمر عن دور الأديب

وعُقد المؤتمر الذى حضره أكابر رجال الفكر فى العالم ، وقام الدكتور طه بالمهمة التى عهدت إليه أحسن قيام ، وألقى خطاباً بالفرنسية عن « دور الأديب فى تكوين الثقافات ومسئوليته أمام المجتمع » كان له أعظم وقع فى نفوس المؤتمرين . . .

وفيما يلى تلخيص لأهم النقاط التى تناولها الخطاب والتى كانت مدار بحث المؤتمرين قال :

«إنه فى هذه الحقبة التى تميزت لا بالاضطراب الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى فحسب ، وإنما باضطراب النفوس وقلقها — فى هذه الحقبة التى تفرض على الإنسان أن يتساءل عن مصيره ، يجمل بالمفكر أو الكاتب أن يستخلص من الظروف الحالية ما يلقى ضوءاً على موقفه من نفسه ومن قرائه .

ذلك أن الأخطار المحدقة بالكاتب وبعمله ، فى العصر الذى نعيش فيه ، تزداد صعوبة وتعقيداً . ففى الوقت الذى تتقدم فيه الفنون والصناعات وتتعدد فيه وسائل اللهو ، يتضاءل الدور الذى يقوم به الكتاب فى تكوين الثقافات . ومن الكتّاب من يلجأ إلى التبسيط حتى يجتذب قراءه ، وفى هذا تضحية بما يفرضه عليه ضميره من خضوع لقواعد الفن وحدها . بيد أن للقراء أيضاً حقهم على المؤلف ، حقهم فى أن يفهموا ما ينتج من أدب ، والكاتب بعد هذا يواجه عقبة ثالثة ، هى الدور الذى يقوم به الوسيط ، أى الناشر وماله من حقوق على المؤلف » .

وكان « اجتماع التعاون الفكرى » ، الذى رأسه بول فاليرى فى صيف عام ١٩٣٧ . قد بحث تلك المشاكل ، وانتهى إلى نتيجة متشائمة ، هى التعارض بين العمل الفنى ومقتضيات المعيشة المادية . وهنا نتساءل . هل يجب على الدولة أن تعين الأدباء إعانة مالية ؟ أليس فى هذا تضحية بحرية الكاتب ؟

ويرجع الدكتور طه حسين إلى العهود الذهبية ، إلى قصور روما وبغداد وفرساى ، عند ما كان الأديب تحت رعاية ملك أو أمير ، فأنتج للعالم أدباً رفيعاً . ولكن كثيراً ما اقترنت هذه الرعاية بالطغيان . فذهبت بكرامة الأديب وحريته ، وكم من فنان موهوب لم يقدره صاحب السلطان فضاعت عليه فرصة الأداء والتعبير . إن هذا النوع من الرعاية يأخذ الآن طريقه إلى الزوال ، ولكن . على الأديب أن يبحث عن وسيلة تكفل له معيشته . وتلك مشكلة المهنة الثانية .

هل العمل الأدبى مهنة ؟

ويقول : إنه يجب ألا نخلط بين المهنة والاستعداد ، أو بين الوظيفة والإلهام الفنى ، فالعمل الأدبى ليس مهنة ، والكاتب الحق لا يكتب ليحصل على ربح مادى .

والمشكلة فى نظر الأديب . هى أن نعرف هل يقوم الكاتب بمهنة خارج عمله الأدبى ، وهل تعوق هذه المهنة إنتاجه ؟ ويتساءل هل يجب أن يقتصر الكاتب على الإنتاج الفنى دون القيام بعمل آخر ؟ ثم يقول : إما أن يكون الكاتب على ثروة ، فعليه أن يتفرغ للكتابة ، وإما أن يكون قلمه مهنته ، فيتعرض لتدخل الدولة أو من يرعاه . وإما أن يكون صاحب مهنة أخرى يرتزق منها . وهو فى هذه الحال محتفظ بكرامته واستقلاله .

وهذه المهنة الثانية مزاياها . فهى تتيح للمؤلف بعض البعد عن عمله

الفكرى حتى تنضج ثمراته . وهى تضطره إلى النزول إلى ميدان الحياة ، فيكتسب خبرة وعلماً . وتصبح الحياة فى كل هذا موضوع تفكيره الدائم. وقد يقال إن المهنة الثانية تقصى الفنان عن عمله ، غير أن الفنان الحق إن شعر بضرورة التعبير فهو لا بد محقق غرضه مهما كانت الظروف. أو قد يقال إن هذه المهنة تؤثر فى أسلوب الكاتب أو الفنان ، ولكن تأثيرها السيئ لا يمكن أن يقارن بفضائلها ، والكاتب الصحيح يستغل مهنته ليضفى على أسلوبه منها ثراء وخصباً . ولقد يقال أيضاً إن هذه المهنة الثانية تستغرق من الأديب وقته وقلبه وعقله ، كما تفعل الصحافة والسينما والإذاعة بالمشتغلين بها ، ولكن الكاتب الأصيل يستطيع أن يوفق بين هذه الميادين وبين ما يمليه عليه وحيه الأدبى .

ومن ثم فالمشكلة أن يختار الفنان عملا لا يلهيه عن أداء رسالته ، حتى يحتفظ بكرامته دون الإخلال بخدمة فنه .

والمبدأ الخلقى الذى يجب أن يصدر عنه الكاتب وأن يرتفع بنفسه دون أن ينعزل فى برج من عاج ، إنما أن يتأمل الحياة من حوله وأن يحدد موقفه من الأشياء ومن الناس .

دور الكاتب فى المجتمع

ويخرج الدكتور طه حسين من ذلك إلى الحديث عن دور الكاتب فى المجتمع ، فيقول : إن الأديب فى كل العصور يلعب دوراً اجتماعياً ، وليس هذا بغريب ، فمنذ أن كان المجتمع ، قام فيه من غنى للناس فاستمعوا إليه ، ومن كتب لهم فقرءوه وأثر فيهم ، فالأديب إذن عامل فى المجتمع ، وهو إلى هذا عامل مسئول ، فهو يؤثر فى الأفراد لأنه ينتج لهم ، وهو مسئول عما ينتج ، لأن لهذا الإنتاج أثره البعيد فى توجيههم الروحى والأدبى . . . إن الأديب أو الفنان مرتبط بالمجتمع أراد أم لم يرد ، ولكن

المشكلة التى يجب أن نضعها هى : أمام من يسأل الكاتب ؟ ومن أى شىء نسأله ؟

ضمير الكاتب وحريته

ويرى الدكتور طه حسين أن الأديب مسئول أولا أمام ضميره . فهو لا يستطيع أن يفرض على غيره أن يقرأ أدبه . وهو من باب أولى . لا يستطيع أن يخضع لهذا الضمير — وهذا معنى حرية الأديب . ولكن المجتمع . فى كثير من الأحوال . لا يحترم هذه الحرية أو لا يتركها على الأقل مطلقة . فالكاتب مسئول أيضاً أمام المجتمع وقوانينه وإن كانت هذه المسئولية خارجة عنه . ولقد تكون القوانين يسيرة هينة فيتسع للكاتب أن يؤدى عمله فى حرية سعيدة . وقد تكون القوانين ثقيلة الوطأة فيبذل الكاتب قصارى جهده لكى يحتفظ ببعض حريته .

ومن ثم . فالمشكلة هنا مشكلة خلقية . كما كانت فيما يتعلق بالمهنة الثانية . والتضامن الحقيقى بين الكاتب والمجتمع يفرض على كل من ناحيته حقوقاً وواجبات . فواجب الأديب أن يكون أميناً حرًّا . وواجب المجتمع أن يهيئ للأديب ما يقيه شر الظلم والطغيان .

٨

أثر الثورة فى تطور الحياة العقلية

كانت الثورة المصرية ما تزال طفلا يحبو . أى فى منتصف عامها الأول . وأخذ الأدباء والصحفيون يبحثون أثرها فى تطور الحياة العقلية وسألت عميد الأدب رأيه فى ذلك فقال :

نعم ، سيكون للثورة المصرية أثرها فى تطور الحياة العقلية . ليس فى ذلك شك . . . ولكن بعد أن يمضى وقت كاف تصل فيه الثورة إلى غاياتها ، ويشعر فيه الشعب بحقائق هذه الغايات ، وتتأثر بها حياته تأثراً صادقاً .

ولأضرب لذلك مثلا :

فقد قررت الثورة تحديد الملكية ، وسيتبع هذا القرار توزيع جديد للأرض الزراعية على المصريين ، فيجب أن يتم هذا التوزيع . وأن يحس الفقير لذة الملك ، ولذة العمل فى الأرض التى يملكها هو ويحس ابنه شيئاً من لين الحياة لم يكن مألوفاً من قبل . ويومئذ يشيع فى النفوس شعور جديد يكون له أثره فى أعمال الناس وآمالهم وتفكيرهم .

وقل مثل هذا فيما تشرّعه الثورة للعمال من قوانين جديدة تنظم العلاقة بينهم وبين رأس المال ، وتؤمنهم على المستقبل ، وتعصمهم من العوادى.

وقل مثل هذا أيضاً فيما ستتخذه الثورة من إجراء لجعل التوسع فى التعليم ملائماً لحاجة الشعب إلى المعرفة .

فالثورة الآن ما زالت فى مهدها لم تبلغ من العمر ستة أشهر . وستة أشهر أمد قصير جداً فى حياة الشعوب . ولكنه على ذلك أمر خصب نرجو أن تظهر آثاره فى أقصر وقت ممكن . . .

وحين قايس بين الفترة التى عاشتها مصر قبيل الثورة وما يتطلع إليه الشعب المصرى بعد الثورة قال :

كل شىء يدل أوضح دلالة وأقطعها على أن الثورة المصرية القائمة صورة صادقة لنفس الشعب المصرى ، فكل مصرى يعلم أن هذا الشعب لم يكن راضياً عن حاله ولا مطمئناً إليها ، وإنما كان يتمنى أن تتغير ، ويتعجل فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين نظرائه هذا التغير . . .

وقال :

ولم تكن آلام الشعب وأحزانه وحدها مصدر هذا السخط وإنما كانت هناك مصادر أخرى تملأ النفوس غيظاً والقلوب حنقاً وتوشك أن تملأ النفوس والقلوب بذلك الحسد الذى يفسد الأخلاق ويأكل الوطنية كما تأكل النار الحطب .

وبعد أن عدّد الكثير من الأمراض الاجتماعية والخلقية التى تفتك بالشعب المصرى قال :

كذلك كانت حال مصر حين تركتها منذ شهر ونصف شهر . وأكبر الظن أنها ستظل كذلك وقتاً يقصر أو يطول . ولكن هناك فرقاً خطيراً بين مصر حين تركتها فى أوائل يونيو الماضى وبين مصر التى وصلت إلى أنباؤها فى أواخر يوليو الماضى . إن ذلك السخط لم يبق مقصوراً على الشعب وإنما أخذ السلطان يشاركه فيه معترفاً بهذه المشاركة منذ ثار الجيش وثار معه الشعب وجعلا جميعاً يطالبان بالتغيير . ثم لا يكتفيان بالمطالبة وإنما يسعيان إلى الإصلاح سعياً حثيثاً . وأخص ما تمتاز به الثورة الأصيلة الخصبة هو أنها تفكر فى أمس لتمحو سيئاته . وتفكر فى اليوم لتصلح شئونه . وتفكر فى غد لتبنى فيه مستقبل الشعب على أساس صالح متين . وتفكيرها فى الماضى يهيئ لها الموعظة والاعتبار ، وتفكيرها فى الحاضر يمهد لها طريق العمل والإنتاج . وتفكيرها فى الغد هو الذى يحقق لها الخصب ويقيم الدليل على أنها لم تكن شيئاً طارئاً أثارته الشهوة ودفع إليه الهوى . ولم تكن سطحية جاءت اليوم لتذهب غداً كما تجىء الأحداث العارضة وتذهب . وإنما كانت صدى صادقاً مخلصاً لصيحة صدرت من أعماق نفس الشعب وضميره . وكانت مظهراً لتفكير عميق عكف عليه قوم أولو حزم وعزم يعرفون مصادرهم وموارديهم ويحققون فى نفوسهم ما يريدون وما لا يريدون ، لا يأتون شيئاً إلا عن إرادة وروية وأناة . ولا يدعون شيئاً

كذلك إلا عن إرادة وروية وأناة .

وما أشك فى أن ثورتنا هذه القائمة ثورة أصيلة لا يكفيها أن تسقط حكومة وينفى ملك ، وإنما سقوط الحكومة ونفى الملك عندها وسيلة لإصلاح أعمق وأكمل وأشمل من هذه الأحداث الخطيرة الظاهرة التى يتحدث عنها الناس الآن فى أقطار الأرض ، والتى سيتحدث عنها التاريخ فيحسن الحديث .

ثورتنا إذن صادقة تصور طموح الشعب إلى الحياة الكريمة النقية وأمل الشعب فى المستقبل الكريم المجيد . وهى من أجل ذلك ثورة إصلاح شامل عميق بأدق معانى هذه الكلمات ، وهناك نواح مختلفة لهذا الإصلاح الشامل العميق ، ناحية الإصلاح السياسى ، ولست أعرض لها الآن ، وناحية الإصلاح الاجتماعى الذى يمس نظام الشعب فى حياته اليومية ليجعل فقر الفقير محتملاً ، ومرض المريض ممكن العلاج حتى يأتى اليوم الذى يعصم فيه الشعب من التعرض للفقر والمرض .

ولست أعرض لهذه الناحية أيضاً لأن غيرى أجدر بالحديث عنها منى . وهناك ناحية الإصلاح التعليمى الذى يحقق للشعب شعوره بكرامته ، ويحقق له شعوره بواجباته ، وشعوره بحقوقه بعد ذلك . وما أعرف شيئاً يجب على الثورة أن تأخذه بالحزم والعزم وبالقوة ، والجد كشئون التعليم . فكل إصلاح اجتماعى أو سياسى فى شعب جاهل لا قيمة له ولا بقاء . وما أظن أن مصريا بعد الثورة يحب أن يصلح غذاء الشعب وصحته دون تعليم كما يصلح أصحاب القطعان غذاء قطعانهم وصحتها .

وإنما المصريون يريدون أن يصلحوا غذاء الشعب وصحته على أنه شعب من الناس الذين يعقلون ويشعرون ويعرفون أنفسهم ويريدون أن يعرفها غيرهم من الناس ، والسبيل إلى ذلك واحدة ليست لها ثانية وهى التعليم .

والتعليم قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء . التعليم الذى يجعل المصرى إنساناً يحتال للفقر حتى يخرج منه . ويحتال للعلة حتى يبرأ منها ؛ ويتحدث إلى الناس فيفهمون عنه ، ويتحدث إليه الناس فيفهم عنهم ؛ وينهاد المصلحون عن الشر فينتهى . ويدعوه المصلحون إلى الخير فيجيب .

ومهما يكن من شيء فقد قامت الثورة الأصيلة فى مصر وأصبح واجباً على كل مثقف ذى رأى أن يكون بها حفيًّا . ولها مخلصاً ناصحاً فى كل ما يحسن النصح فيه .

* * *

ولم يشأ أن يتوسع أكثر من ذلك . ولا سيما والثورة . كما قال . ما تزال فى المهد . ولا يبدو أثرها واضحاً فى الحياة الفعلية إلا بعد أن يمر عليها ربع قرن على الأقل حيث تتحقق أهدافها . فتعطى على ضوء المناهج والإنجازات أبرك الثمرات .

٩

دعوته إلى فلورنسة لحضور مؤتمر السلام المسيحى

. . . والذين سمعوه فى مؤتمر الفنانين الذى عقد فى البندقية من أدباء وشعراء وفنانين وصحفيين ورجال دين — وكلهم من الأعلام الذين يعرفون للفكر مقامه وللكلمة سحرها — شعروا ، وكأنهم لم يأخذوا حظهم من أدب هذا المفكر العربى الذى أنبتته أرض مصر ؛ فلم يكد يعقد مؤتمر السلام المسيحى فى فلورنسة حتى كان طه حسين فى طليعة المدعوين إليه .

لبى الدعوة مرتاحاً وجاء كمستمع إذ لا شيء أحبّ إلى نفسه من

حضور المؤتمرات التى يتخذها وسيلة ، بعد انفضاضها ، للركون إلى الراحة والاستجمام .

وحضر المؤتمر وسمع المحاضرات وهى فى موضوع « السلام » ، وهو موضوع يمت بصلة ، فى تلك الفترة ، إلى السياسة أكثر مما يمت إلى الأدب ، ولا سيما وقد خرج العالم من الحرب الثانية بعد أن أعطت البشرية من شبابها أربعين مليون نسمة كوقود لها .

وقبل أن ينفض المؤتمر طلب إليه الرئيس إلقاء محاضرة فاعتذر ، لأنه لم يكن مستعداً لها ، وحين ألحّ لم يشأ أن يرفض ، وجعل موضوع محاضرته « الإسلام والمسيحية » ، و « الصلاة والشعر » ، ونترك للدكتور طه أن يحدثنا بأسلوبه العذب عن مفارقات هذه المحاضرة التى اصطبغت بالروح الإسلامية فأحدثت دويا قويا فى محيط مسيحى عميق الجذور ولا سيما حين كان ينقل إلى الفرنسية ترجمة صحيحة لبعض أحاديث النبى الكريم ، وقد بلغ التأثر ببعض كبار المؤتمرين أن وقفوا خاشعين حين استمعوا لهذه الأحاديث النبوية وتقدموا يهنئونه ، وتقدمت زوجة سفير شيلى ، ثم عقيلة سفير النرويج تطلبان إليه أن يعطيهما صورة من الدعاء الذى كان يدعو به النبى إذا تهجد من الليل فأعطاهما ترجمة فرنسية منه .

وفيما يلى مقتطفات من حديثه عن أيام هذا المؤتمر .

« . . . وكذلك انقضت الأيام الثلاثة الأولى أسمع أحاديث القلوب والعقول مصبحاً ، وأزور الآثار والمتاحف ممسياً ، لا تقيد حريتى فى شىء من ذلك إلا بمقدار ما أريد أن أقيدها ، فإذا أقبل الليل رددت إلى نفسى وجعلت أفكر وأتحدث فيما سمعت وما شاهدت .

ولست أخفى أنى قد استعذبت هذه الحياة ، واستحببتها وتمنيت أن تطول ، ومالى لا أفعل ؟ وأنا أعيش عيشة طالما طمحت إليها نفسى : ضيافة كريمة فى فندق فخم مريح ، وزيارة ممتعة فى المساء لمتاحف الفن

وآثار القدماء . . .

ولكن رئيس المؤتمر يلقاني ذات مساء في بعض هذه الزيارات فيسألني في لفظ عذب متى ألقي محاضرتي . ولم أكن أعددت نفسي لشيء من هذا . وكنت قد قدّرت قبل السفر أن هذا المؤتمر سيتحدث عن السلام . وقلت لنفسي وبعض أصدقائي :

من يدري لعلي أتحدث إلى المؤتمرين عن "السلام في الشرق الأوسط" ولكني رأيت القوم لا يتحدثون في السياسة ولا يعرضون لها إلا بالرمز البعيد. وقد حاولت أن أعتذر . ولكن رئيس المؤتمر لم يقبل مني عذراً بل قال :

ليس من محاضرتك بد . فغداً ينبغي أن نسمع حديث قلبك كما سمعت أحاديث قلوبنا .

ولم يكن بد من أن أستجيب ففعلت وأنا واثق بأني أغامر أشدّ المغامرة . ومع ذلك فلا بدّ مما ليس منه بدّ .

وزاد إشفاقي من هذا الموقف أني لم أحمل معي كتباً تتصل بهذا الموضوع من قريب ولا بعيد .

ففزعت إلى القرآن الكريم الذي أصطحبه دائماً . وأخذت أقرأ فيه قراءة متصلة كلما استطعت الخلوة إلى نفسي وإلى صاحبي ولا سيما حين يقبل الليل .

الساعة الموعودة

وجاءت الساعة الموعودة فرقيت منبر القوم وأنا في شيء من الذهول . لا أعرف كيف أصنع الآن .

ثم أخذت أتحدث وأنا لا أكاد أعي ما أقول . . . ولكني رأيتني أتحدث عن "الصلة بين الإسلام والسلام" وأؤكد أن اسم الإسلام مشتق

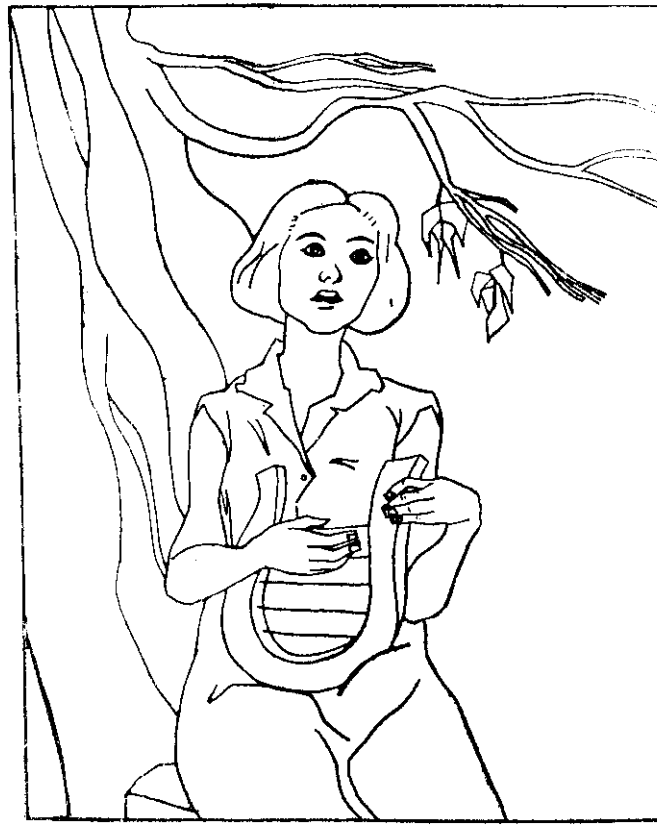

من المسلم . وأن المسلم فى القرآن هوالذى يسلم قلبه ووجهه لله . وأن المسلم فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده . وأن إبراهيم أبا الأديان السماوية قد جاء ربه بقلب سليم . وقد أسلم وجهه لله حنيفاً . فالمسلمون أهل سلام .

ثم رأيتنى أتحدث عن الصلاة وأبين أنها ركن من أركان الإسلام . وأتحدث عن الصلاة بمعناها اللغوى العام . وهو الدعاء .

وأعرض عليهم نماذج من الدعاء كما ورد فى القرآن .

وأقرأ ترجمة فرنسية لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم . يدعو به إذا تهجد من الليل .

وكنت قد حفظته من الصحيحين . . .

ثم رأيتنى أتحدث إليهم عن الشعر . وحكم الإسلام فيه . وعن الشعر الدينى عند المتصوفين والزهاد . وعند أبى العلاء أيضاً .

ثم رأيتنى أتحدث إليهم عما بين الإسلام والمسيحية من تقارب فى كثير من المثل العليا كما صورها القرآن . وكما صورته الأناجيل .

ورأيتنى أنزل عن منبر القوم راضى النفس . مطمئن القلب . كما لم أرنى فى أعقاب محاضرة ألقيتها بالعربية أو بالفرنسية .

فقد تعودت أن أسخط على نفسى أشد السخط إثر كل محاضرة ألقيتها . ولكنى فى هذه المرة لم أشفق من شىء إلا أن تكون فرنسيتى أقل استقامة من فرنسية الآخرين الفرنسيين الذين تحدثوا قبلى .

ومصدر هذا الاطمئنان فيما أعتقد أنى لم أتكلم وإنما تلوت من القرآن . ورويت أطرافاً من الحديث . وفسرت من ذلك تفسيراً يسيراً ما احتاج إلى التفسير .

وليس من شأنى أن أتحدث عن رضا الناس عن هذه المحاضرة . فقد يدفعنى ذلك إلى شىء من التكثر الذى نهينا عنه . ولكنى أشهد أنى لقيت

من الذين استمعوا إلى رضا أى رضا . واعتقدت منذ تلك الساعة أننا نستطيع أن نحبب الإسلام إلى قلوب كثيرين جداً أكثر مما نظن إذا عملنا بقول الله عزّ وجلّ .

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجادلهم بالتى هى أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) .

تهانى القسيسين والرهبان

وقد تلقيت تهانى كثيرة من القسيسين والرهبان . ولكن شيئاً واحداً أثر فى نفسى أشد التأثير وأعمقه وأبقاه ، وهو سعى هذه السيدة النرويجية التى تسألنى فى صوت مضطرب يملؤه الحنان أن أكتب لها هذا الدعاء الذى كان النبى يدعو به إذا تهجد من الليل لأنها تريد أن تدعو به كل ليلة .

وقد كتبت لها هذا الدعاء ودفعته إليها من غد .

فقالت لى فى تأثر شديد :

"تحيتى إلى الإسلام الذى أحببته منذ أمس" » .

١٠

من إيطاليا إلى الحجاز

ويحرص القرّاء أن يعرفوا نصّ هذا الدعاء وأن يحفظوه . فلننتقل مع طه حسين من إيطاليا إلى الحجاز ، ومن البندقية وفلورانسة إلى مكة والمدينة ، فقد انتدبته الجامعة العربية سنة ١٩٥٥ ليرأس اللجنة الثقافية التى عقدت فى جدة والتى ضمت مندوبين عن جميع البلاد العربية ، ولم يكد يفرغ من مهمته حتى قصد مكة والمدينة ، فحج وزار ، وقبل الحجر الأسود ،

وقف فى المسجد الحرام يناجى ربه . وقد أثارت هذه الزيارة ظنون الكثيرين الذين ما زالوا يوغلون . عن جهل . بعقيدته ويقينه . . .

وما كاد يصل إلى القاهرة حتى يزوره الأستاذ كامل الشناوى ويجرى معه الحديث الآتى :

كيف كان شعورك وأنت فى هذه الأماكن المقدسة ؟

فقال : لقد سألونى مثل هذا السؤال وقلت لهم :

ما بالكم تقحمون أنفسكم **بين** المرء وربه ؟

فقلت له : إننى بهذا السؤال لا أقحم نفسى بينك **وبين** ربك . **ولا** بينك **وبين** قلبك ؛ ولكنى أحاول أن أقحم معلوماتى عن المفكر الحر . الثائر ، طه **حسين** . . .

لقد عرفتك **لا** تبالى بما يقول الناس عنك . . . وما أكثر ما قالوا . بل ما أكثر ما صنعوا ؛ لقد اتهموك بالكفر ، ووصل الأمر إلى النيابة العامة ، وخرجت من الاتهام بريئاً نقياً . . . كان ذلك منذ ربع قرن أو أكثر . . . عند ما ألفت كتاباً عن الشعر الجاهلى . . . لقد عرفت الشائعات . . . فمن حقى إذن أن أعرف الحقائق . . .

وأطرق الدكتور طه **حسين** ، ومسح جبينه بيده . كأنما يحاول أن ينفض عن رأسه غبار بعض الذكريات وقال :

لقد سبق أن عشت بفكرى وقلبى بهذه الأماكن المقدسة . زهاء عشرين عاماً منذ بدأت أكتب « على هامش السيرة » حتى الآن . ولما زرت مكة والمدينة أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعاً ، **عشت بعقلى الباطن** ، **وعقلى الواعى** ؛ استعدت كل ذكرياتى القديمة ، ومنها ما هو من صميم التاريخ . ومنها ماهو من صميم العقيدة ، وكانت الذكريات تختلط بواقعى فتبدو حقائق حيناً ورموزاً حيناً آخر ، وكان الشعور بها يغمرنى ويملأ جوانب نفسى .

وقلت للدكتور طه :

هل أخرجك هذا الشعور عن المألوف ؟

فابتسم وقال : على أى حال لم أصل إلى درجة الانجذاب ، كنت دائماً فى كامل وعيى . . . أخذتنى الرهبة والخشية والخشوع كل مأخذ عند ما كنت وحدى . . .

فسألته : هل زرت الأماكن المقدسة مرتين ؟

فقال : لا . . . بل زرتها مرة واحدة ، وكنت فى هذه المرة الواحدة مع نفسى فى وقت واحد !

قلت : هذا كلام يحتاج إلى إيضاح .

فقال : إليك الإيضاح :

لقد جرت العادة عند ما يصل المرء إلى الكعبة ، أو المسجد الحرام أن تتسلمه طائفة من الناس يسمون فى مكة « بالمطوفين » أى الذين يقومون بإجراءات الطواف بالكعبة ، ويسمون فى المدينة « بالمزورين » أى الذين يقومون بإجراءات الزيارة لقبر الرسول عليه السلام .

وقد حاولت جهدى أن أتخلص من المطوفين والمزورين ، ولكن محاولاتى ذهبت هباء ، ووجدتنى بين أيديهم أردد بلا وعى ما يقولونه ، ووجدتنى فى الوقت نفسه وحدى وإن كنت فى صحبتهم . . .

كنت شخصين : شخصية واعية بلا كلام ، وشخصية متكلمة بلا وعى . . .

كانت الشخصية المتكلمة بلا وعى تردد كلام المطوفين والمزورين ، وكانت الشخصية الواعية بلا كلام تناجى ربها فى صدق وصمت وخشوع .

وسألته : بماذا ناجيت ربك فى صمت وخشوع ؟

فقال :

قال ـ له ـ سبحانه :

اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والأرض .

ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض .

ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن . . .

أنت الحق ، ووعدك الحق . والجنة حق ، والنار حق ، والنبون حق . والساعة حق .

اللهم لك أسلمت . ولك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت . وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت . وما أعلنت . وما أسررت .

أنت إلهى . . . لا إله إلا أنت !

وقلت للدكتور طه : متى حفظت هذا الدعاء ؟

قال : إنى أحفظه منذ زمن بعيد ، وهو من أصح ما روى من الحديث عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقلت : هل سبق لك أن ناجيت ربك بهذا الدعاء قبل اليوم ؟

فقال : دائماً أناجى ربى بهذا الدعاء وبغير هذا الدعاء .

قلت : هل خاطبت ربك علناً ؟

فقال : أنا إذا خاطبت ربى ناجيته . وقد سبق أن أذعت هذا الدعاء . . .

ـ متى ؟

ـ عام ١٩٥٢ .

ـ أين ؟

ـ فى فلورنسة . . .

ـ باللغة العربية ؟

فقال : أذعت الدعاء باللغة الفرنسية ، فى مؤتمر الحضارة المسيحية .

ولم أكد أنتهى من إلقاء هذا الدعاء ، حتى دوت قاعة المؤتمر بتصفيق شديد . وجاءتنى سيدة مسيحية ، وطلبت منى نسخة من الدعاء ، فأعطيتها نسخة وقالت وهى تبكى :

خذ دموعى وإعجابى ، وبلغهما للإسلام الذى أحبه كثيراً .

فقلت لها لا داعى للدموع . . . إعجابك يكفى .

١١

الدور الذى لعبه العرب فى الحضارة الإنسانية

ويرتفع صوته فى جدة فيهيب بالعرب أن يلعبوا اليوم نفس الدور الذى لعبه أجدادهم فى تاريخ الحضارة الإنسانية . فيتحدث عن نشأتهم ومراحل تطوّرهم وأثرهم فى الأمم ، وهو حديث صاف عذب ينبع من القلب ، وقد هزته نشوة الرسالة التى قام بها النبى الكريم فتراءت له الحضارة العربية فى أجلى مظاهرها وأقوى إبداعاتها . . . وهى ثمرة أفئدة وعتْ ، وعقول أخذت نصيبها من العلم والثقافة على أوسع نطاق .

وهو يريد مخلصاً ألا يقصر الأبناء عما بلغه الآباء . . .

يقول : « هؤلاء العرب الذين خرجوا من جزيرتهم هذه ، وليست لهم فى الحضارة سابقة ولا حظ لهم من العلم إلا ما علمهم الله فى كتابه الكريم — خرجوا فوجدوا حضارات كثيرة قوية بعيدة الأثر فى الحياة الإنسانية متنوعة مختلفة الألوان والفنون والعلوم ، فلم يمض عليهم إلا قرن واحد حتى كانوا قد أساغوا كل هذه الثقافات ، ثم لم يكتفوا بإساغتها وتمثلها ، وإنما أخذوا يضيفون إليها ويزيدون فيها ، ويضيفون إلى كنوز الإنسانية فى العلم والمعرفة كنوزاً ، ثم لم يكفهم هذا حتى أشركوا فيه الإنسانية كلها ، لم يستأثروا لأنفسهم منها بشىء وإنما أشركوا فيه الأمم التى كانت تستظل

بظلمهم فيء ، اتخذوهم أول الأمر معلمين . ثم أصبحوا لهم أساتذة ومعلمين . ثم أصبحوا لهم إخوة يدعونهم إلى الخير . ويستعينون بهم على الحق . ويجدّون معهم فى إغناء العلم والثقافة والأدب من جميع وجوهها . ثم لم يكفهم هذا حتى نشروا هذه الثقافة فى أقصى أقطار الأرض التى عرفوها وأتاحوا بعد ذلك للأجيال التى ستخلفهم على الحضارة والتى أتيح لها التفوق فى هذه الأيام أن يتعلموا وأن يتثقفوا . وأن يعرفوا أنفسهم وأن يعرفوا أصول ثقافتهم . وثقوا أننا لا نغلو ولا نكثر ولا نفاخر بالباطل إذا قلنا إن الغرب الأوربى والأمريكى الآن على تفوقه إنما هو مدين بتفوقه كله وبعلمه كله لهذه الأصول الخصبة الدائمة التى نقلها العرب إلى أوربا فى القرون الوسطى ، ولا ينبغى مطلقاً أن نتحرج من أن نطالب الأوربيين — وقد طالبتهم كثيراً — بأن يردوا إلى الشرق بعض دينهم عنده . وألاّ يكونوا ملتوين بما عليهم من الدين ، وأن يشعروا بأن للشرق العربى عليهم جميلا يجب أن يقدروه وأن يشكروه لا أن يسرفوا فى العزة والإثم . ولا أن يبغوا على الذين أحسنوا إليهم وعلموهم كيف يكون الإحسان .

وبعد أن أشار إلى تخلفنا عن ركب الأمم التى أخذت بنصيب وافر من العلم والثقافة قال :

أنا أحب لكل عربى فيما بينه وبين نفسه أن يزكى نفسه بالعلم والثقافة والمعرفة ، وأن يأخذ من هذه الأشياء أكثر ما يستطيع ويتعمقها أشدّ التعمق حتى إذا لقى الأوربى والأمريكى ، لم يحس لهذا الرجل أو ذاك تفوقاً عليه ، ولم يحس فى نفسه بالاستحياء ، ولم يشعر بأنه من وطن قليل الحظ من العلم والثقافة .

وكما أتصوّر هذه الثقافة بالقياس إلى الأفراد أتصورها كذلك بالقياس إلى الشعوب ، فلا ينبغى أن يكون شعب عربى أقل علماً وثقافة وجدّاً فى العلم والثقافة من أى شعب من الشعوب التى تتفوق فى هذا اليوم ، وعلينا

نحن أبناء هذا الجيل أن نعمل لذلك ، وأن نستدرك ما فاتنا ، وأن نهيئ للأجيال العربية التي ستلينا النهوض بهذه الأعباء وتمكين البلاد العربية من أن تكون سيدة لا في أوطانها فحسب ، ولكن في العالم الإنساني كله .

فيجب أن تفتح أبواب الأمم العربية ونوافذها على مصراعيها لكل لون من ألوان العلم ، ولكل فن من فنون الثقافة ، ولكل ضرب من ضروب المعرفة ، وأن تكون قلوبنا جميعاً هي التي تستقبل هذا كله ، فنميز منه الخبيث من الطيب ، ونستبقي منه ما يلائم طباعنا وأمزجتنا ، وننتفع به في ترقية الحضارة العربية بحيث لا نكون عيالا على الأوربيين والأمريكيين حتى في أيسر حياتنا المادية .

يجب أن نعيش في الأرض منتجين لا مستهلكين فقط .

يجب أن نعطي وأن نأخذ ، وأن يكون ما نعطيه من العلم والثقافة أكثر مما نأخذه من العلم والثقافة . . .

كذلك كنا من قبل ، وما ينبغي أن يقصر الأبناء عما بلغه الآباء ، وإنما الأصل أن يضيف الأبناء إلى ما أنشأ الآباء ، فيجب أن تذكروا دائماً أن العرب القدماء فعلوا كثيراً في سبيل العلم والثقافة والإنسانية . . . وأننا نحن إلى الآن لم نفعل شيئاً .

عرف الأستاذ ساطع الحصري بنزعته العربية الصارخة ، وقد أغنى المكتبة العربية برسائل وبحوث قيمة عن القومية العربية إلى سلسلة محاضرات ألقاها في عدة معاهد ، وفي معهد الدراسات العربية العالية والتي انتظمها أكثر من كتاب واحد ، وهو كثير الولع بتتبع أحاديث كبار الأدباء المعاصرين ، والمصريين منهم بصورة خاصة ، والتعليق عليها إذا بدا له أنها انحرفت عن النهج القويم لسير الوحدة العربية المؤمن بها كل الإيمان حتى اعتبره البعض

فيلسوف القومية العربية في هذا العصر .

وقد رأى في حديث طارئ للدكتور طه حسين أجاب به عن أسئلة بعض الشبان اللبنانيين الذين لقوه على ظهر الباخرة . قبل ثلاثين سنة . في طريقهم إلى أوربا للدراسة . رأى في ذلك الحديث عن الوحدة العربية التي لم يكن قد تبلور مفهومها في أذهان الكثيرين — رأى في ذلك الحديث الطارئ ما يمس عروبة طه حسين حين أشار إلى اعتزاز المصريين بمصريتهم فاعتبر هذا الاعتزاز لوناً من الخروج على القومية العربية . وكثيراً ما غمزه ولزه وصوره « فرعونيا » غير مؤمن بالعروبة . حتى كاد يضعه في صف الشعوبيين الذين كانوا ينادون في فترة ما بالفرعونية في مصر . وبالفينيقية في لبنان وبالآشورية في العراق . وما كان طه حسين من هؤلاء ولا يمكن أن يكون حتى ولم تخطر بباله هذه اللوثات وهو الذي أعلى من شأن العروبة . وخلق مدرسة تعنى عناية علمية بالدراسات العربية . ووجه جيلا جديداً للعناية بالتراث العربي القديم . ووقف خصماً لدوداً للشعوبيين الذين يحاولون مس الفصحى بالدعوة إلى العامية . وله مواقف صارمة وصريحة ضد كل من يتعرض للعروبة في لغتها وأدبها وتراثها . . وهي أكثر من أن تذكر . ولن أنسى موقفه في مؤتمر المجامع العلمية بدمشق حين دعا أحد زملائه المجمعيين وهو مصري . إلى « العامية » فهزأ بدعوته كل الهزء . وناله بالتقريع واللوم مدافعاً عن العروبة دفاعاً حاراً مما انطلق به لسانه وفاض به قلبه بهذا الصدد قوله :

« . . . وأغرب ما ألاحظ أن في مصر كتاباً وأدباء يناقضون أنفسهم أشد المناقضة . ويناقضون حكومتهم أشد المناقضة أيضاً . بل يناقضون دستورهم مناقضة أقل ما تدل عليه هو أنهم لا يخفلون بشيء ولا يرجون لشيء وقاراً . فهم يدعون إلى "الوحدة العربية" ويلحون في الدعوة إليها . وحكومتهم تدعو إلى هذه الوحدة وتجد في العمل لها . وفي ابتغاء الوسيلة

إليها . وتبذل فى ذلك جهوداً صادقة موفقة .

ودستورهم يعلن أن مصر جزء من الوطن العربى . وأن اللغة العربية هى لغتها الرسمية ، إذ هم بعد ذلك ، وعلى رغم ذلك يستخفون باللغة ويريدون أن يتخلصوا منها . ولا يتردد بعضهم فى أن ينصرف عنها إلى اللغة العامية ، مجاهراً بذلك لا يستخفى به ويتحفظ فيه ، ولا يتردد بعضهم الآخر فى أن يطالب بإلغاء النحو ، أو فى أن يطالب بإلغاء الإعراب وتسكين الكلمات مع أنه عضو فى المجمع اللغوى المصرى . ومع أن قبوله لعضوية هذا المجمع يلزمه العمل بقانونه ، ويلزمه تبعاً لذلك أن يحافظ على سلامة اللغة العربية الفصحى وصيانتها من العبث والفساد » .

ويقول : « إنهم وهم يدعون إلى الوحدة العربية صادقين لا ينبغى أن يهدموها فى نفس الوقت الذى يدعون إليها . وأى هدم للوحدة العربية أعظم خطراً وأعمق أثراً وأسوأ عاقبة من إضعاف اللغة التى تجمع بين العرب ، والاستخفاف بها أو الانصراف عنها . ومن الدعوة إلى ألا تكون لهذه الأمة العربية لغة جامعة توحد تفكيرها وتتيح لشعوبها المختلفة أن يفهم بعضها عن بعض . وأن يقرأ بعضها آثار بعض قراءة مباشرة لا تحتاج إلى نقل ولا إلى ترجمة . وأن يتحدث ساستها وأدباؤها وعلماؤها فلا يحتاجون إلى أن يقوم بينهم المترجمون وينقلون إلى بعضهم أحاديث بعض . . . »

والواقع ، أننى ما رأيت أديباً مجدداً حرص على اللغة العربية حرص طه حسين عليها . وحرصه على اللغة هو سبيله إلى الوحدة العربية فى تاريخها الطويل . وحين يدعو بحرارة إلى صيانتها والحفاظ على أصولها ومقوماتها ، والتمسك بخصائصها وتراثها فهو يدعو مباشرة إلى الإيمان بالوحدة الكبرى .

وبعد فلا يمكن أن نصم هذا الأديب العبقرى بضعف إيمانه بالوحدة

العربية إذا تمسك بمصريته؛ وما كان تمسك المصرى بمصريته . والعراقى بعراقيته . واللبنانى بلبنانيته ليناقض أو ينفى إيمانه بالعروبة .

إن إيمان مصر بالوحدة العربية لم يكن واضحاً كل الوضوح قبل ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وكثيراً ما كان الزعماء والساسة والأدباء والشعراء يتخبطون فى أحاديثهم حين يشيرون إلى جهود السوريين أو العراقيين أو أى قطر عربى ضد الاستعمار فينعتونهم « بالإخوة الشرقيين » وقلما جاءت كلمة العروبة على ألسنتهم .

فهذا شوقى أمير الشعراء حين واسى دمشق التى خربت بمدافع الفرنسيين قال :

نصحت . ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا . إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق

وقال فى قصيدة ثانية يحيى فيها دمشق :

ونحن فى الشرق والفصحى بنو رحم ونحن فى الجرح والآلام إخوان

وهذا على الجارم يحيى « الجامعة العربية » حين أنشئت سنة ١٩٤٤ بقوله :

سنا الشرق من أى الفراديس تنبع ومن أى آفاق النبوة تلمع
تذوب حشاشات العواصم حسرة إذا دميت من كف بغداد أصبع
ولو بردى أنت لخطب مياهه لسالت بوادى النيل للنيل أدمع

ولا مجال للاستشهاد بأكثر من ذلك . . . فكان ذكر « الشرق » و « الأخوة الشرقية » فى عرف أكثر المصريين يعنى العروبة بمفهومها العميق . . . إذ كانت النزعة المصرية التى ترمى إلى تخليص مصر من براثن الاستعمار — هى الهدف الأول . على أن يلتقى جهادهم بجهاد

بقية الأقطار العربية فى سبيل الهدف الأسمى .

وجاءت الثورة المصرية — ثورة تموز سنة ١٩٥٢ — لتعلن فى دستورها صراحة أن مصر — وقد تحررت من كل سيطرة أجنبية وجلا الإنجليز عن أراضيها — هى جزء من الأمة العربية ، وأن العمل للوحدة العربية الكبرى هو هدفها الأمثل . . . وهو ما يعمل فى سبيله جميع أحرار العرب ، وما يعمله المصريون ساسة وأدباء ومفكرين ، ولا يمكن أن يكون طه حسين ، كما توهم الأستاذ الحصرى ، ضدّ هذا الاتجاه !! ..

١٢

الفصحى والعامية

فى صدد حديثه عن الفصحى والعامية وتنكر البعض للفصحى ودعوتهم للعامية ، كتب مقالا طويلا فى الأهرام [١] ندّد فيه بدعاة العامية ، وبين كيف كان الجيل القديم يعنى بتجويد أسلوبه وإشراق عبارته والحفاظ على قواعد لغته ، وأشار إلى ملح وطرائف من عهد الدراسة الأزهرية . وكيف كان الشيوخ يقررون أن العربية هى أفصح اللغات فقال :

كنت أضحك من الدرس الأول الذى كان طلاب الأزهر الشريف يسمعونه حين يبدءون دراسة النحو ، فيقرأ عليهم الشيوخ قول المؤلف رحمه الله الذى جعل لغة العرب أفصح اللغات .

وكنت أقول إن لغة العرب فصيحة ما فى ذلك شك ، ولكن فى الأرض لغات أخرى ليست أقل منها فصاحة وجزالة وامتيازاً .

---

(١) ٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ .

وكان المحافظون يرون هذا القول منى جموحاً وإهداراً للقيم الموروثة . وثورة بالسنن التى تلقاها الأبناء عن الآباء .

لغة أهل الجنة

وكنت أتندّر بما كان بعض القدماء يختصمون فيه من أن لغة أهل الجنة فى الدار الآخرة هى اللغة العربية أو اللغة السريانية .

فكان غلاة المحافظين يضيقون منى بذلك أشدّ الضيق .

مع الشيخ بخيت

وأذكر أنى حين هممت بالسفر إلى أوربا لإتمام الدرس سألنى الشيخ بخيت . رحمه الله . ما الذى تريد أن تدرسه فى أوربا؟! فقلت له متضاحكاً : أريد أن أدرس اللغة السريانية . فقال : ولم تدرس اللغة السريانية؟ قلت : لأحسن الرد على الملكين حين يسألانى فى القبر لأنهما يسألان باللغة السريانية . ورويت له ما كنت أحفظ من قول بعض الأزهريين القدماء :

ومن غريب ما ترى العينان أن سؤال القبر بالسريانى

أفتى بهذا شيخنا البلقينى .

فغضب الشيخ وضحك الحاضرون . وكانت كثرتهم من المطربشين ...

ولقيت الشيخ بعد عودتى من أوربا فسلمت عليه ولم أقبل يده . وأراد أن يشعرنى باحتقاره لى وازدرائه لما تعلمت فى أوربا ولما اتخذت من زى جديد . فلم يكن يدعونى إلا طه أفندى !

محسبك بهذا اللقب احتقاراً وازدراء .

وبعد أن أشار إلى ما مرّت به الحركة الأدبية خلال ربع قرن ، وحرص الأدباء على تجديد الأدب وردّ الشباب إلى اللغة بعد أن أدركتها فى القرون الأخيرة أعراض تشبه أعراض الشيخوخة والهرم ، إلى حرصهم على الجمال الفنى الذى يأتى من سماحة اللفظ وسجاحته ، ومن يسر المعانى ووضوحها ، ومن صفاء الأساليب ونقائها ، تحدث عن أدباء الشباب ، وسفه الدعوة إلى العامية ، وتمسك بالفصحى كأداة من أدوات وحدة الفكر قال :

أدباء الشباب

إنهم أشقياء بفنهم ، تعوزهم وسيلة الأداء . آثارهم أشبه بالجمال البارع يعرض فى الأثواب الرثة المهلهلة التى تفسد جماله ، وسبب ذلك خروجهم على ما ألف الناس من صور البيان ، وإيثار الفصاحة على الركاكة ، وحين أحسوا بالعجز ثاروا على اللغة نفسها ونصبوا لها حرباً . أقل ما توصف به أنها عقيم ، لا تغنى شيئاً ، فليس من الحق فى شىء أن اللغة العربية الفصحى قد ماتت ، أو أشرفت على الموت — كما يزعم بعضهم — بل ليس من الحق أن قد أدركها ضعف أو فتور أو قصور ، وآية ذلك أن الناس يعربون بها عن ذات أنفسهم حين يكتبون دون حرج ، ويؤلفون الكتب ، ويترجمون ما يؤلف غيرهم من الأجانب . . . وينشرون الصحف والمجلات ، والناس يقرءون ذلك دون أن يجدوا بأساً ، وثمة أناس ينشرون الكتب القديمة التى كتبت بالفصحى ، فيقرؤها أصحاب الثقافة العميقة الواسعة ، وأصحاب الثقافة المتوسطة الضيقة . . . وليس هذا شأن اللغة التى ماتت وإنما شأن اللغة التى ما زالت حية قادرة على الحياة .

اختلاف الجمود والحركة

ثم يقول : إن أدباءنا الشباب يتورطون فى خطأ حين يظنون أن العربية

الفصحى لا يمكن أن تصح ولا أن تستقيم إلا إذا اتخذت ذلك الشكل القديم الذى يألفونه فى شعر القدماء ونثرهم فى أثناء القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى للهجرة .

فلغة القرن الأول للهجرة لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الجاهلية . ولغة أبى نواس وأصحابه ، لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الفرزدق وجرير . ولغة المتنبى لم تكن هى لغة أبى نواس ولداته . . . ومعنى هذا أن حياة اللغة شىء وجمودها واستعصاءها عن التطور شىء آخر .

انتصارات الفصحى

ثم يفند الدكتور طه الموازنة التى يعقدها هؤلاء بين اللاتينية والعربية الفصحى زاعمين أن مصير الثانية كمصير الأولى . ويقول إن اللاتينية لم تمت فجأة ولم تمت لأن الشباب من أبنائها قضوا عليها بالموت . . . وقد تعرضت الفصحى لخطوب طوال انتصرت عليها . وظلت حية قوية متطورة . وظلت اللهجات العامية ضعيفة لا تصلح للأداء الأدبى قليلا أو كثيراً . . . وليس يكفى أن نقرر أن لغة من اللغات ماتت لتموت . وخير من هذا العبث أن نستقبل مشكلات الفصحى . وهى :

أولا : الكتابة العربية .

وثانياً : النحو العربى .

وقال : إن إصلاح الكتابة وتيسير النحو العربى كفيلان بإراحة الجيل الناشئ . من هذا العناء الثقيل الذى أدى إلى أن يجمع كتاب الشباب بين الجمال والقبح ، والجودة والرداءة فى وقت واحد ، وإلى الشكوى من صعوبة الفصحى ، وإلى المطالبة بالالتجاء إلى العاميات . وليذكروا أن العالم العربى وكثيراً من العالم الشرقى يفهم الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه .

ترجمة اللهجات

ويختم العميد مقاله : « فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر فى لهجته ، وتمعن هذه اللهجات فى التباعد والتنافر ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون . . . كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والإسبانيين » .

وحدة الفكر

ولنسأل أخيراً : « أيهما خير ، أن يكون للعالم العربى كله لغة واحدة هى الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ، أم أن تكون له لغات بعدد الأقطار التى يتألف منها . أما أنا فأوثر وحدة الفكر ، وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر . وأرى أن "وحدة اللغة" خليقة بأن يجاهد فى سبيلها المؤمنون ، وأن يضحوا بكل ما يملكونه » .

١٣

شعر الصبا

الشعر هجسات نفس ونبضات قلب ورعشة فؤاد .

وبدهى أن تهجس نفس طه حسين بالشعر وهو فى فجر الصبا ومطلع الشباب وقد عاش هذه الفترة من حياته ، فى بيئة أزهرية تعتبر قول الشعر ضرباً من التفوق بين الأقران ولا سيما الذين يملكون ناصية القول . . .

وطه يملك ناصية القول نثراً فلم لا يحاوله شعراً .

وتمرّ بعض المناسبات فيخلو إلى نفسه ليردّد بعض المقاطع وهي أشبه بحدو الغناء . . .

ويستمع إليه أصدقاؤه فإذا هم بين محبذ وناقد . . .

وقد يكون نقد الضغينة أكثر من تحبيذ الصداقة . . .

وكأني بهم كانوا يقولون ما لهذا الثائر قد اقتحم ميدان الشعر . . . فإذا سار في هذا الدرب أصبحنا نكرات . . .

والواقع أن ظه ما ادّعى الشعر بل هجسات هزت نفسه فانطلقت صوراً موزونة لها هذا الإيقاع .

ويتناقل الزملاء هذه المقطوعات الوجدية والإخوانية فما تكاد ترددها الألسن حتى تظهر على صفحات الصحف . . .

ومن الأمانة للتاريخ أن نثبت هذا الشعر الذي يقص طرفاً من عواطف شاب أزهري قبل انطلاقه إلى باريس . وقبل أن يصبح أميراً من أمراء البيان وسيداً من سادة النقد والفكر الحديث .

فمن شعره هذه المقطوعة التي تفصح عن حنينه لسويعات حلوة مرت من أفق حياته :

يا رعى الله عهوداً للهوى منذ سنين
حين كنا في أمان من عيون الرقباء
نجتني اللذات لا نخشى أذاة الكاشحين

* * *

إنما العذال للحب وللأحباب داء
آه ما أحلى الأماني ليت أيامي تعود

* * *

أنا من أمضيت من عمري عشرين ربيعا
غير أني قد بلوت العيش والجهد الجهيد

بين بؤس ونعيم يذهب العمر سريعا (١)

وكانت جريدة مصر الفتاة قد نشرت له قبل هذه القصيدة مقطوعة نظمها على نحو « الشعر المسمط » وقد قدمتها بهذه الكلمة (٢) :

يرى القارئ فى القصيدة البليغة الآتية ، أن صاحبها الأديب الفاضل انتهج فيها أسلوباً يظنه بعض الأدباء من الأساليب الإفرنجية لاتفاقها مع الشعر الإفرنجى فى التقاطع والروى . ولكن هذا النوع لم يفت العرب فى جاهليتهم ؛ فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر المسمط .

وقد جعلها تسعة أسماط ، وكل سمط أربعة أبيات . يتفق البيت الأول مع البيت الثالث فى الروى . والبيت الثانى مع الرابع كذلك .

قال طه حسين :

شادن عطف عطفة الحبيب
بعد ما صدف صدفة الملول
كم سبى العقول قوله الحلوب
يملك القلوب ثم لا ينيل

* * *

كل ذى بهاء . . . يمقت الوصال
يظهر الحياد . . . وهو فى صدود
من لذى السهود . . . منه بالنوال
إن فى الجمال . . . عثرة الجدود

* * *

وكانت جريدة « مصر الفتاة » هى الجريدة التى تفتح صدرها للشباب

---

(١) جريدة مصر الفتاة ٧ يناير عام ١٩١٠ .

(٢) نفس المصدر ١٩٠٩/١٢/٣١ .

المجددين من الأدباء والشعراء . وهى مرجع وثيق لشعر ونثر الأعلام وهم فى بداية عهدهم الأدبى .

ومما نشرته لطه الشاب الأزهرى المقطوعة التالية :

يحسب العذّال أنى همت بالحب جنونا
لو رأى العذال رأيى فى الهوى ما عذلونى
ولما قالوا فلان أحد المستهترينا
أنا لا أعطى غرامى أبداً كل شئونى

* * *

ساعة عندى للجد وأخرى للهزل
فإذا ملت إلى الجد فمقدام أريب
وإذا ملت إلى الحب فآب للعذل
هذه جملة أحوالى فهل فيها ذنوب ؟ (١)

* * *

هذا . وقد تمكنت بين طه حسين وأحمد حسن الزيات ، أواصر صداقة متينة ، ووشائج محبة قديمة منذ أوائل هذا القرن . وكان طه حسين يجتمع بالزيات فى الأزهر حينا ، وفى المنتديات والمقاهى المنتثرة حول الأزهر تارة أخرى . كما كان يجتمع به أيضاً فى بيت آل عبد الرازق فى بعض المرات ، حيث كان آل عبد الرازق يعقدون جلسات أدبية شهية يحضرها أعلام الفكر والأدب فى هذا العصر ومنهم : الشيخ عبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم . وكان الزيات وطه حسين ، لا يفترقان إلا لليلتقيا مرة أخرى فى أحد هذه الأماكن .

وتمكنت أواصر المودة بينهما كل التمكن حتى وشى بينهما رجال السوء

---

(١) جريدة مصر الفتاة .

فدبت القطيعة بينهما . ويبس الثرى . وامتدّت الجفوة إلى أن شاء أحمد حسن الزيات أن يستكمل دينه بالزواج ، وهنا تحركت مشاعر الحب القديم فى قلب طه حسين ، وجذبته روابط الإخاء والمودة جذباً ، فنظم قصيدة يهنئ بها صديقه الزيات ، الذى كان قد دعاه إلى حضور حفل قرانه . فأجاب طه حسين دعوته . ونشر على أثر ذلك قصيدة بهذه المناسبة فى صحيفة مصر الفتاة بتاريخ ١٥/١٠/١٩١٠ قال فيها :

يا خليلى سلامى حبذا يوم القران
حبذا أمس فقد أدنـ ـى نوالاً غير دانى
حبذا ليلة أمس راق لى فيها زمانى
ليلة قد نلت فيها من حظوظى ماشفانى
أنا لا أحمد منها حسن توقيع الأغانى
إنما أحمد منها حسن أنسى بفلان
لم أزل أقصف حتى خلت أنى فى الجنان
بينما نحن على ذ لك... زفّ القمران
آه يا زيات ما أجـ ـمل ساعات الأمانى
هن قد هجن لنفسى ذكر سحر وعنان
أنا لولا سوء حظى لم أكن إلا ابن هانى
يا شقيق النفس ضاق الشعر عن نظم التهانى
لا تلمنى أن دعوت الشعر ، والشعر عصانى
جل حبى لك يا زيات عن وصف البيان

وما ضاع من شعره أكثر مما حفظته بعض الصحف ، يؤكد ذلك الكلمة التى ألقاها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات فى حفلة تكريمه حين حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب من الجامعة المصرية بمناسبة رسالته « تجديد ذكرى أبى العلاء » . . .

ومما قاله صديقه الزيات [١] :

« فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى — يعنى طه حسين — لن يبزنا فى نثر الكلام ونظمه . وإن بزنا فى حفظه وفهمه . ولكن ماذا تقولون وقد غدا على الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع . جاهلية الأسلوب . تمثل ما انطبع فى خاطره من صور الشعر القديم . . . سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا ، وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة . فأحللناه منا محل الإنسان من العين . والسواد من القلب ومضينا على إثره نخوض بحور الشعر . فتارة نطفو . وتارة نرسب وهو فى السباحة ماهر . وبالطريق خبير . . . »

وكلما مرّ يوم وأعقبه آخر انبثقت عن ذاكرة زملائه وأصدقائه ذكريات عزيزة مخبوءة ذات اتصال وثيق بنشأته الأدبية . ولا سيما بنظمه الشعر . ولو جمع هذا الشعر الذى تطويه صحف تلك الأيام لألف ديواناً قد يرضى أو لا يرضى عنه الدكتور طه ، على أن الشيء المؤكد أن ابتسامة من بسمات الحنين إلى أيام تلمذته وشبابه ستغمر وجهه حين يقرأ الشعر الذى قد يعتبره اليوم هذراً .

كان يتسابق . فى تلك الفترة ، مع زميليه الزيات والزناتى وهم يأخذون اللغة عن أستاذها الشيخ محمود الشنقيطى : ويدرسون الأدب على أستاذ الجيل سيد بن على المرصفى .

ويروى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عن الزيات القصة التالية :

لما وضع أستاذنا الشنقيطى كتابه « الرحلة » طلب منا نحن الثلاثة أن نتسابق فى مدحه شعراً على أن تكون للسابق نسخة من الكتاب جائزة .

(١) الجريدة ٢٦ / ٥ / ١٩١٤ .

فنظم كل منا قصيدة ، وكان طه أطولنا نفساً ، وأقوانا نظماً . ولكنى كسبت الجائزة لأنى ضمنت قصيدتى كلمة « الدرفس » وهى كلمة من غريب اللغة معناها « العلم » فطرب لها الشنقيطى كل الطرب .

وقال الزناتى : كنا نتسابق فى ميدان الشعر أنا وطه والزيات ، وكنا نتبادل عرض ما ننظم من قصائد ومقطوعات . . . ففى يوم وضعت أبياتاً ونسبتها إلى أبى نواس ثم أنشدتها على طه بهذه النسبة ، فلما سمعها تروّى قليلا كأنه يعرضها على ذوقه ثم ضحك وقال : هذه الأبيات لأبى نواس المصرى العصرى ، لأن النواس القديم لا يقول « دع ذا » كما تقول . . .

* * *

ونختم هذا الفصل ونحن نتحدث عن شعره أيام الشباب ، بالإشارة إلى إحدى قصائده الكبرى التى ألقاها فى ذكرى الهجرة .

فمنذ نصف قرن ونيف لم تكن مصر تحتفل بالعام الهجرى ، ولا تحس له ذكرى ، وكانت أعمال الحكومة تتعطل رسميا فى مطلع العام الميلادى ، ولكنها لا تتعطل فى مصر لمطلع العام الهجرى . فقام طلاب المدارس العالية وقرروا الاحتفال فى ناديهم بذكرى الهجرة ، وجرى هذا التقليد يومذاك ، وكان الحزب الوطنى هو المسيطر على الحياة السياسية فى ذلك الوقت ، فكان يرعى هذه الاحتفالات ويجعل منها احتفالات دينية ووطنية قومية ، يجرى فيها حديث السياسة مع حديث الدين ، وكان شعراء مصر الكبار وفى مقدمتهم حافظ إبراهيم يعدون القصائد الوطنية لتلك الاحتفالات العظيمة .

ويقول الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف ، فلما كان العام الثالث لهذه الاحتفالات كان حافظ إبراهيم قد وظف فى دار الكتب ، وحجبته الوظيفة عن أن يتقدم إلى هذا الميدان كعادته . فتقدم الشيخ طه حسين

تملأ مكانه فى ذلك الميدان . وكان أن أنشد هذه القصيدة . وأنشد بعده الشاعران الكبيران أحمد نسيم وخليل مطران . وإنها لمفارقة لطيفة أن نرى « مطران » يحيى عام الهلال .

ويذكر الذين عاصروا ذلك العهد أن المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش حين وقف يقدم شعراء الحفل قال :

لقد غاب حافظ عن احتفالنا هذا العام . ولكن إذا كان حافظ قد غاب فإن شاعراً كبيراً يتقدم إليكم اليوم . وهو الشيخ طه حسين الكاتب القدير الذى تعرفونه بكثرة كتاباته ومقالاته .

والقصيدة صورة من الشباب المتحمس الممتلئ بالقوة والفتوة . فقد جرى فى نظمه على الأسلوب المعهود آنذاك فراح يخاطب الكواكب والأفلاك ، ويتحدث إليها عما فى نفسه من الآمال والآلام ، ولكنه بعد أن قطع شوطاً فى ذلك عاد بعقله الواعى البصير الذى نعرفه عنه فى العهد الأخير يقول لنفسه :

مالى وللأفلاك أطلب ودها

وقد تحدث فى هذه القصيدة ، فى تلك الفترة البعيدة من الزمن ، عن الجلاء والاستقلال ، وعن التعليم وخطر الجهل ، وعن المرأة وقضيتها ، وعن الأغنياء ومباذلهم ، وعن الفقر ومشكلته . وعن الصحافة وقيودها . . . فعبّر عن نزعته التجديدية وروحه الثائرة أصدق تعبير ، كما صور وضع مصر فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها — فى عهد الاحتلال البريطانى — أصدق تصوير :

والقصيدة طويلة جاوزت أبياتها الستين بيتاً نثبتها بنصها الكامل كوثيقة من وثائق الأدب القومى نظمها طالب أزهرى متحمس أصبح له فى يومنا هذا أضخم شأن فى تاريخنا المعاصر . . .

وفيما يلى القصيدة . . .

كن أنت بعد أخيك خير هلال ... وأضئ لمصر سبيل الاستقلال
وابسم بها بعد العبوس فربما ... صنع ابتسامك بالرجاء البالى
كن أنت ميمون المطالع مرسلا ... للنيل بالإســـــعاد والإقبـال
أشرق وحدّث مصر عن آمالها ... ماذا صنعت بهذه الآمال
أمصدق فيك الظنون وناظر ... للنيل نظرة مانح وصّال
ومبدد عن مصر بعض همومها ... فلقد أضرّ بها أخوك الخالى
أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها ... من ريبهن بوابل هطّال
ما بين آونة تمر وأختها ... هول يحيق بهم من الأهوال
عسف تنوء به النفوس وشدة ... سوأى العواقب، جمة الإملال
ماذا أقص عليك من آلامنا ... هيهات هل يسع الشكاة مقالى
إن الشكاة بمصر جرم مهلك ... والنقد مصدر محنة ونكال
من يشك أو يرفع بذلك صوته ... فهو المهيّج والسفيه الغالى
أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا ... كتابها بالضيم والإذلال
وعدا على التمثيل من غلوائهم ... عاد فآذن ظله بزوال
نقموا من التمثيل نطق ممثل ... فيه للفظة « كامل » وكمال
فاهتاج هائجهم عليه وأغلقوا ... أبوابه من غير ما إمهال
سل إن أردت النيل عن آلامنا ... تسمع لديه جواب كل سؤال
وانظر فحولى لو بدا لك معشر ... ترمى إلى ألحاظهم بنبال
يتلمسون بكل بيت هفوة ... ويؤولون برأيهم أقوالى
إنى لأكتمك الحديث تحفظا ... وأرى السكوت على الأذى أولى لى
فلقد تكون «قصيدتى» كوسيلة ... بينى وبين السجن والأغلال
هلا سألت أخاك فيم نفورد ... منا وفيم جفاؤه المتوالى
وعلام خصّ الشرق من أرزائه ... بالجائحات وفادح الأثقال
فى البرتغال له يد مذكورة ... وله بأرض الفرس أسوأ فال

أشلى كلاب الضالين عسيرو ... فعدوا نهاب خليعة وخلال
ما زال بالإسلام يعرف أهله ... وبلاده عرف الرحى بثفال
حتى لقد أمسى بسوء مصيره ... فهو الحديث ومضرب الأمثال
ما لى وما للبدر أطلب رده ... بل ما لأفلاك السماء وما لى
منا بليتنا وفينا برؤها ... لولا اختلاف الرأى والأميال
إن السعادة بالوفاق رهينة ... لا يخلدعنكم بريق الآل
نرجو الرقى وكيف ترقى أمة ... سلكت سبيل التيه والإضلال
عبثت بحق الأمهات وأغفلت ... أمر الأمومة أيما إغفال
لم تربهن فكن مصدر شقوة ... فيها وداء للبنين عضال
ساد الذين عنوا بأمر نسائهم ... وتمور بهن إلى مكان عال
أنى تكون الصالحات لأمة ... رغب الغنى بها عن الأفضال
يجبى بيمناه النضار ولم يكد ... حتى يجود على الخنى بشمال
يمسى ويصبح فى النعيم وقومه ... لم يظفروا من بحره بهلال
فالجهل منتشر تعيث شروره ... فينا وتفتك فتكة الأغوال
فى كل آونة تمد حباله ... فيصيد صرعى الفقر والإمحال
ما بين بائسة تقسم ضعفها ... نفس مفرقة وجيب خال
فاسترسلت فى المنكرات وحللت ... من نفسها ما لم يكن بحلال
وذوى عيال مرملين غلا بهم ... جهل وأعياهم طلاب المال
فاستفتحوا باب الشرور وأرقلوا ... نحو المآثم أيما إرقال
لا در در المال إن لم يدخر ... لبناء مكرمة وحسن فعال
لا در در المال إن لم يدخر ... إلا لذات الطوق والخلخال
لا در در المال إن لم يدخر ... إلا لنيل مراتب الإجلال
ماذا يفيد وسام صاحبنا إذا ... سبقت إلى الحسنى يد الحمال
أيجود تلميذ بدرهم يومه ... عن طيب نفس غير ذات ملال

وجود مضطر بقوت عياله ... جذلان لايصغى إلى العذال
والأغنياء على الملاهى عكف ... صرعى الملاحظ والهوى الختال
إنى لأخشى أن تصير أمورنا ... إن دام نجلهم لأسوأ حال
شبان مصر لكم أزف تحيتى ... وإلى حميتكم أسوق مقالى
يا ويح مصر من الزمان وصرفه ... إن لم تهبوا همة الأبطال
أحيوا العلوم فلا حياة لأمة ... أمر النساء بها إلى الإهمال
كونوا لمصر كما تؤمل فيكم ... ذخر الزمان وبهجة الآمال
أزهار نهضتها وأنجم سعدها ... وجمالها المزرى بكل جمال
الرافعين منار مصر ومجدها ... والحافضين عدوها المتعالى
والقائمين لها على رغم العدى ... بالمكرمات وصالح الأعمال
والفائزين لمصر إذ تدعوهم ... فى غير ما وزر ولا إجفال
لازال جيلكم لمصر بهاءها ... وعلاءها الباقى على الأجيال

١٤

مؤلف أغان

ومن المفارقات الغريبة أن يكتشف الموسيقيون أن الشيخ طه حسين قد ألف عدة أغان . وأن غوصه فى بحار الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف فى الأزهر الشريف لم يمنعه أن يمدّ عالم الطرب والأغانى كما مد عالم الأدب بالشعر . هى علائم النبوغ المبكر تبدو ملامحه فى كل ظاهرة من ظواهر الحياة .

فبينما كانت لجنة الموسيقى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية تبحث فى موضوع إحياء ذكرى كامل الخلعى وسيد درويش وداود حسنى ونشر تراثهم . إذ بالأستاذ أحمد بسيونى زوج

كريمة كامل الخلعى يقدم مجموعة الأغانى التى يحتفظ بها عمه ، وهى عبارة عن ٤٠ رواية بين أوبرا وأوبريت قدمتها فرقة منيرة المهدية وزكى عكاشة وغيرها و ٥٠٠ قطعة غنائية ونشيد لحنها الفقيد . وكانت مفاجأة مذهلة أن رأوا . وهم يفحصون الأغانى ، اسم طه حسين على إحدى الأغنيات ويتركون المجموعة ليقرءوا هذه الأغنية المكتوبة بخط الموسيقار الخلعى . وقد كتب عليها من تأليف « الشيخ طه حسين » وهذه هى :

أنا لولاك كنت ملاك
غير مسموح أهوى سواك

سامحنى

فى العشاق أنا مشتاق
أبكى وأنوح بالأشـــــواق

صدقنى

عهدك فين نور العين
بالمفتـــــوح تهوى اتنين

جاوبنى

واحد بس يهوى القلب
قلبى يبوح له بالحب

طاوعنى

أنا أهواك مين قساك
أنا مجروح غايتى رضاك

واصلنى

ما أحلاك وقت رضاك
لما تلوح ما أبهاك

وقد أجمع أعضاء اللجنة ، وبينهم مأمون الشناوى مؤلف الأغانى المعروف وكلهم من كبار الموسيقيين على أنها من أرقّ الأغانى التى ظهرت فى الخمسين سنة الأخيرة وقد سجلتها شركة « الفونوغراف » بعد أن لحنها كامل الخلعى .

١٥

نقده للمنفلوطى وللشيخ رشيد رضا

ويجرنا الحديث عن شعر الصبا ، إلى الحديث عن نشأته الأدبية التى مهدت لذيوع اسمه ، مع أنه ما زال طالباً فى الأزهر .

فقد نشأ ونفسه تضطرم بالثورة على كل ما لا يلائم مزاجه وذوقه الأدبى .

وإذا كان للشباب نزواتهم ، وكانت نفسه قد امتلأت بالنزعة الأدبية الصافية بعد أن قرأ دواوين القدماء وأمهات كتب الأدب فوعاها واستظهر منها الكثير الكثير ، وأصبح يملك ناصية القول وسحر البيان — رأى أن يتطاول على أديب عملاق سلب عقول القراء وهزّ مشاعرهم بنصوع بيانه وجمال أسلوبه .

كان هذا العملاق هو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب « النظرات » و « العبرات » ومترجم ماجدولين وفى سبيل التاج .

وتصدى له ينقده نقداً مرًّا جارحاً فكتب فى جريدة « العلم » التى كان يحررها الشيخ عبد العزيز جاويش عدة مقالات بإمضاء « أزهرى ناشئ » .

وكان لهذه المقالات صداها العميق فى المجتمعات والأندية وخاصة فى البيئة الأزهرية . . .

وبدأ الأدباء يتساءلون مَنْ هذا الناشئ الأزهرى الذى تجرأ أن ينقد

زعيم أدباء تلك الأيام .

يهزأ بأسلوبه ويتعقب سقطاته اللغوية . . .

وحين يسخر منه ينقده بنفس أسلوبه . . .

كان يصابحهم كل يوم بمقالة حتى بلغت تلك المقالات العشرين فكانت من الأسباب التي رفعت انتشار الجريدة وازدياد توزيعها . فمن وخزاته تلك قوله :

لو استطعت أن أظهر ضاحكاً فيما أكتب لرآني القراء مستغرقاً في ضحك شديد من صاحب النظرات وما يكتبه من ألاعيب الصبية وأفانين المجون . . . ولكنها الألفاظ لا تجيد وصف الصور ولا تحسن الإفصاح عن ذات الصدور . . .

ويخاطب المنفلوطي قائلا :

أيها الكاتب المجيد . . . أسعد الله صباحك وأحسن مغداك ومراحك . . . وقوم المزور من شأنك والمعوج من لسانك . . . وأنعمك الصواب في الإعراب . . . والإحسان في البيان . . . فما أعلمك في كل ذلك إلا دعيًّا .

« بحثت عن معناك فلم أجده إلا غثا . . . وعن لفظك فلم أجده إلا رثًّا . . . وعن أسلوبك فلم ألفه إلا مبتذلا . . . وعن صيتك فلم أجده إلا منتحلا . . . وعن مقرظيك فإذا هم بين ظالم ومظلوم . ولأثم ومأثوم . فسألت الله أن يثأر منك العرب » .

نعم ، ظل القراء ورجال الأدب بصورة خاصة . والأزهريون بصورة أخص — ظلوا يتساءلون من هذا الناشئ الأزهري الذي تطاول على عملاق من عمالقة الأدب ؟

لم يكتشم السر . فعرف فيما بعد أنه شاب اسمه الشيخ طه حسين . وأخذوا يكبرونه . وبدأ هو يأخذ مكانه المرموق في صفوف

الأدباء ، وأصبح يحسب لنقده أكبر حساب . . .

وقد سأله صحفى ، بعد أربعين سنة من تلك الحملة ، عن سر الحملة على المنفلوطى فأجابه وهو يبتسم :

« كنت شابا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف » .

قال له :

لقد أفرطت وتطرفت فى النقد . . .

فقال له مقاطعاً :

تعنى طول اللسان . . . إن سببه فى رأيى هو عنف مزاجى ، ولعل هذا السبب ولا سبب غيره . . .

وكما نقد المنفلوطى فقد تطاول على الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » وتلميذ الشيخ محمد عبده ، ولا سيما حين تقرب إلى الخديو وادعى أن أسلوبه قريب من أسلوب القرآن ، فتصدى له طه حسين وكتب :

« لسنا نريد أن نناقش رشيداً فيما كتب . . . ولن نناقشه فيما سيكتب من الأباطيل والأضاليل ، وإنما نريد أن نكشف للناس عن دخيلة أمره وخبيئة نفسه ليعلموا أنه ليس بذلك الذى يدعو إلى الله ، وينشر دينه بين الناس » .

(نريد أن نبين للناس أن رشيداً إنما يتخذ الدعوة إلى دين الله سبيلا إلى الشهرة ، وسلماً إلى الصيت » .

« يقول رشيد : إن كل من قرأ النبذ التى كتبناها — أى التى كتبها رشيد — كاد لا يميز بينها وما فيها . . . من آيات القرآن . . . لولا الحفظ (أى أنه لا فرق بين ما يكتب وبين ما جاء فى القرآن . . . إلا أن الناس يحفظون القرآن !) » .

« الآن وقد زعم رشيد أنه سامى ربه وأتى بمثل كتابه يظهر للناس أنه راغب فى الدعوة إلى دين الله . . . »

« أترى فى القرآن مثل هذا السجع البارد . . . والانعكاس الفاتر . . . والإضافات المتتابعة . . . ثم ألا تشعر بعد ذلك بالسرقة والاختلاس من ذلك الكتاب الذى تجاريه » .

منذ تلك الفترة والخصومة على أشدها بين صاحب المنار وطه حسين .

وحين صدر كتابه : « فى الشعر الجاهلى » وأثيرت تلك الحملة الهوجاء ضده . رأى الشيخ رشيد رضا أن الفرصة مؤاتية للانتقام منه . فكتب عدة مقالات اتهمه كغيره من الأزهريين والإخوان المسلمين فى دينه وجردوه من إيمانه ويقينه . وحين استؤنفت الحملة مجددة فى البرلمان والتى أثارها المرحوم الأستاذ عبد الحميد سعيد رئيس الإخوان المسلمين والتى كان مصدرها عوامل حزبية سياسية أكثر منها دينية — تلك الحملة التى استنكرها الكثيرون آنئذ بعث الشاعر الكبير حافظ إبراهيم إلى الدكتور طه البيتين التاليين اللذين لم ينشرا فى ديوانه ويرددهما طه حسين كلما ذكرت تلك المناسبة :

إن صح ما قالوا وما أرجفوا ... وشنعوا زوراً بدين العميد
فكفر طه عند ديانه ... أحب من إيمان عبد الحميد (١)

١٦

حرصه على كرامة الجامعة

عاش الدكتور طه حياته فى صراع دائم
صراع فى سبيل حرية الفكر
صراع فى سبيل الكرامة الإنسانية

(١) عبد الحميد سعيد رئيس الإخوان المسلمين .

صراع فى سبيل المثالية التى آمن بها
ما عرف قط الخوف والتردد والخنوع ،
يجهر برأيه فى أدق الظروف العصيبة .

رفيق عنيف فى آن واحد ــ رقته تبدو دائماً مسربلة باللباقة والكياسة ، وعنفه ــ حين يلمس الاعوجاج ــ ثورة عاصفة مزمجرة لا تبقى ولا تذر ، وهو يعرف كيف يفرق بينهما فى اتزان محمود .

ما هان على نفسه قط .

فلكرامته دائماً مقامها المرموق ــ كرامته كإنسان مفكر ، وكرامة المركز الذى يشغله سواء كان هذا المركز فى الأوساط الرسمية أو فى البيئات العلمية ، والجامعية منها بصورة خاصة . . .

فقد حدث ، وهو عميد كلية الآداب عام ١٩٣٢ ، أن طلب إليه إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء ، وهو حاكم شديد البطش والجبروت ــ طلب إليه أن يمنح درجة الدكتوراه الفخرية إلى غير واحد من السياسيين الممالئين لعهوده وللملك بصورة خاصة . . .

ويدرس طه حسين تاريخ هؤلاء الأشخاص فلا يجد واحداً منهم يستحق هذه الرتبة العلمية . . . فيقف من هذا المطلب موقفاً صلباً ، أى لا يجمجم ، ولا يخنع ، فيرفضه بإباء ، ثم يذهب إلى وزير المعارف حلمى عيسى باشا ويقول له بالحرف الواحد :

« إن الجامعة تعطى درجة الدكتوراه الفخرية بوحى من نفسها لا بوحى من الحكومة .

وإنها لا تستطيع أن تمنح هذه الدرجة لأفراد حزبيين » .

وتثور الحكومة إزاء هذا الرفض .

وتتناقل الخبر أروقة القصر .

ويصل إلى سمع الملك فؤاد فيأمر حالا بعزل الدكتور طه من عمادة

الكلية . فلا يكاد يسمع بالنبأ حتى يبتسم هازئاً ويردد وهو يترك حرم الجامعة :

رب من أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لى موتاً لم يقع

ولكى تنقذ الحكومة نفسها من هذه الورطة . طلبت إلى عمادة كلية الحقوق أن تتولى هى منح الدكتوراه الفخرية . ولم تتلكأ . فخضعت للأوامر صاغرة . فى الوقت الذى أبى عميد كلية الآداب أن يسخر كرامة العلم لأهواء السياسة . بل لأهواء الحزبية الرعناء .

وظل هكذا طوال حياته حريصاً كل الحرص على كرامته وكرامة العلم وكرامة المقام الذى يشغله .

١٧

تحمله تبعات ما يكتبه فى الصحافة

وحين خاض غمار الصحافة كان جريئاً إلى أبعد حدود الجراءة .

كان يهاجم بعنف وبأسلوب أدبى لاذع دونه سخرية الجاحظ وهزء فولتير .

ولا سيما حين يشعر أن الحق بجانبه . وأن من يهاجمهم من خصومه قد التووا عن نهج الصواب وسلكوا طريقاً معوجة .

ويكفى أن تعلن الجريدة أنها تنطوى على مقال لطه حسين . ولا سيما فى الأزمات الحزبية العاصفة . حتى يرتفع توزيعها ارتفاعاً مذهلا . . .

وكثيراً ما كانت النيابة تستدعيه لاستجوابه وإدانته . فكان يذهب غير هياب ولا وجل . . .

وما تنكر قط لما كتبه أو أذاعه .

كانت جرأته مضرب المثل ـ جرأة المؤمن بقداسة الحق وبالقضية التى يدافع عنها .

فقد حدث مرة أن هاجم القيسى باشا المسئول الأول فى وزارة الداخلية متهماً إياه بتضليل مجلس النواب وتزوير محضر جلسة المجلس .

وتستدعى النيابة الأستاذ عبده حسن الزيات رئيس تحرير الجريدة لتسأله عن كاتب المقال فيعترف بأنه هو ـ أى الزيات ـ كاتب المقال ، وتسأل النيابة طه حسين فيقول : أنا كاتب المقال والزيات تلميذى ويريد أن يضع أستاذه بمعزل عن المحاكمة .

ويسأل الزيات من جديد فيؤكد أنه الكاتب وأن طه حسين يريد أن يفتديه . . . وتعود النيابة مرة ثانية لتسأل طه حسين الذى يأتى بالدليل على أنه وحده المسئول .

قال طه حسين :

أرجو أن تسأل النيابة سكرتيرى الأستاذ فريد شحاته فقد أمليته المقال.

وتقدم النيابة محمد حسين هيكل وحفنى محمود وعبده حسن الزيات وطه حسين إلى محكمة الجنايات التى تصدر حكمها بتغريم كل منهم خمسين جنيها .

يدفع المبلغ مبتسماً هازئاً وقد أبت عليه نفسه وكرامته أن يلجأ إلى المداورة والكذب .

١٨

موقفه من خصومه

ومن المفارقات المحمودة فى حياة طه حسين أن قلبه ما حمل الضغينة ولا الحقد على أحد . . . حتى مع خصومه الذين انحدر بعضهم إلى الشتائم

المقذعة . وقد قال بهذا الصدد :

لقد تعودت الشتائم فى كل مكان وزمان ، وأصبحت لا أدهش من أن يشتمنى أى إنسان .

وقال : إن خصومه كانوا يهاجمونه ، ويكافئهم الحكام على مهاجمتهم له ، وروى كيف هاجمه المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، واتهمه بشر التهم ، وقد أبدى الملك فؤاد اغتباطه بهذا الهجوم ، وأمر بإيفاد أحد أبناء الرافعى فى بعثة علمية إلى أوربا على نفقة « الخاصة الملكية » ، ودارت الأيام وانتقل الرافعى إلى جوار الله ، وكان الدكتور طه عميداً لكلية الآداب ، وعرف أن بنت الرافعى لم تستطع دفع المصروفات ، فطلب من اللجنة المختصة أن تمنحها المجانية ، وقال : إذا كانت هناك عقبات قانونية فى منح المجانية لبنت الرافعى فأنا على استعداد لدفع مصروفاتها من جيبى .

١٩

رأيه فى الصحافة قبل ربع قرن

سئل الدكتور طه عن رأيه فى الصحافة قبل ربع قرن وصحافة اليوم فقال :

إنه بالرغم من التطور المذهل الذى دخل على صحافة اليوم فهى تخضع لعدة مآخذ منها :

. . . كانت لدينا صحافة رأى تهتم بتثقيف عقول القراء . . . أما اليوم فإن الصحف تهتم بالأخبار الداخلية والخارجية وتفسح مكاناً بارزاً لأخبار الجرائم . . . إن الصحف لا تكتب إلا للعامة . . . إن الصحف اليوم نكبة على الأدب . . . إنها تشغل الناس عن قراءة الكتب وتدعوهم

إن الاهتمام بسفاسف الأمور . . . إن الصحف تكتب بالألفاظ العامية . . . أين هذا من صحافة الأمس . . .

وأبدى سخطه فقال :

إنها تحللت من الوقار والجدية . وجنحت إلى الخفة والتفاهة واهتمت بنشر أنباء لا تهم أحداً . . . فماذا يهم الناس من أن ممثلا ترك عشيقته ، ومطربة طلبت الطلاق من زوجها ! وإذا كان هذا جائزاً بالنسبة إلى صحافة الإثارة والخفة ، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى صحافة الرأى والوقار .

وحين قال له أحد الصحفيين إن الاهتمام بالأخبار الشخصية يكاد يكون غريزة قال :

إن وظيفة الصحافة ليست أن تتملق الغرائز ، ولكن وظيفتها تهذيب الغرائز .

وقد عاش الدكتور طه حسين حياته غير بعيد عن جو الصحافة . منذ كان طالباً فى الأزهر إلى يومنا هذا . . .

كتب فى « السفور » وفى « الأهرام » وفى « الجريدة » وفى « السياسة » وفى « كوكب الشرق » و « الوادى » و « الجمهورية » وفى غيرها من الصحف الكبرى فمارس اللون الحزبى والتوجيهى معا . وكان عنيفاً كل العنف فى جميع مقالاته التى كان يكتبها على هامش عمله الجامعى . وكانت تحدث هزات عنيفة فى الأوساط السياسية والبيئات الأدبية . وبالرغم من خوضه المعارك القلمية مع الحكام الطغاة والهيئات المؤتمرة بأمرهم ، فقد كان هجومه يتسم بالأدب العف واللفظ المهذب والتوجيه السليم . . . أى كان ينقد نقداً قاسياً بروح من الهزء والسخرية . فيقرأ خصومه مقالاته غاضبين ثائرين . ثم لا يلبث هذا الغضب أن يزول تحت سحر جمال الأسلوب من جهة . وترفعه عن الصغار من جهة أخرى . . . وهذا الذى يريده من الصحفيين

الشباب أن ينهجوه لا أن ينحدروا بالصحافة إلى أن تصبح مرآة للفضائح وتملق الغرائز .

٢٠

رأيه فى الشعر الحر

وإذ ثار بعض الشعراء الشباب على عمود الشعر العربى وأخذوا يعبرون عن هواجسهم وإرهاصاتهم بكلام مفكك ، مهلهل ، مضطرب قد خلا من الوزن والقافية والإيقاع الموسيقى ، كان لا بد لعميد الأدب من أن يقول كلمته الواضحة الصريحة فى هذه الفوضى التى غمرت الحياة الأدبية فى الستينات من هذا العصر — هذا الشعر الذى تحير وافى تسميته ، فطوراً يسمونه شعراً منثوراً ، وطوراً شعراً حرًّا أو مرسلا ، فلا إيقاعات مسايرة للانفعالات تشتد بشدتها وتخفت بخفوتها ولا قوالب ولا قافية ، فكانت فوضى دخل ميدانها الفسيح متشاعرون وشعراء أساءوا إلى الأدب ، وإلى قدسية الشعر وملكوته ، فأصبح الكلام المفكك ، والجمل المتقطعة ، والكلمات الغامضة المنتهية بالنقط والأصفار وإشارات التعجب والاستفهام — أصبح شعراً حرًّا أو مرسلا أو منثوراً ، وتقرؤه مرات ومرات فلا تفهم مضامينه ولا رموزه وإشاراته ، قد خلت كلماته وجمله من نبض الشاعرية ومن الإيقاع الموسيقى الذى يهز الأفئدة والمشاعر ، ويدغدغ الوجدانات والعواطف ، وأين استطاع بعضهم أن يلزموا شعرهم الحر بتفعيلات ذات إيقاع موسيقى ، وهم قليلون — وقد رجع بعضهم عن هذا الهذر — فإن أكثرهم قد دخلوا الساحة وهم أبعد ما يكونون عن حياة الأدب والشعر .

وبما أن للشعر المرسل أو الحر قواعد فى الآداب العالمية ، كان لا بد لعميد الأدب ، إزاء هذه الفوضى الصارخة التى جرأت الكثيرين

على تلطيخ وجه الشعر الناصع بهذا الهذر المزرى – كان لا بد له من أن يقول كلمة صريحة واضحة لا جمجمة فيها ولا التواء .

قال حفظه الله :

« . . . من الشباب طائفة يرون لأنفسهم الحق فى أن ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم ، وعن أوزانه وقوافيه خاصة ، ولست أجادلهم فى هذا الحق بل ليس لى أن أجادلهم فيه ، فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تنزل من السماء ، وليس ما يمنع الناس أن ينحرفوا عنها انحرافاً قليلا أو كثيراً أو كاملا . . . ولكن للشعر قديماً كان أو حديثاً أسساً يجب أن ترعى ، وخصائص يجب أن تتحقق ، فليس يكفى أن ينشئ الإنسان كلاماً على أى نحو من أنحاء القول . ثم يزعم لنا أنه قد أنشأ شعراً حديثاً . وإنما يجب أن يحقق فى هذا الكلام الذى ينشئه أشياء ليس إلى التجاوز عنها سبيل . فالشعر يجب أن يبهر النفوس والأذواق بما ينشئ فيه الخيال عن الصور . ويجب أن يسحر الآذان والنفوس معاً بالألفاظ الجميلة التى تمتاز أحياناً بالرصانة والجزالة ، وتمتاز أحياناً أخرى بالرقة واللين ، وتمتاز فى كل حال بالامتزاج مع ما تؤديه من الصور لتنشئ هذه الموسيقى الساحرة التى لا تنشأ من انسجام الألفاظ فحسب ولا من التئام الصور فحسب وإنما تنشأ من هذا الائتلاف العجيب بين الصور فى أنفسها وبينها وبين الألفاظ التى تجلوها بحيث لا يستطيع السمع أن ينبو منها ، ولا تستطيع النفس أن تمتنع عليها ، ولا يستطيع الذوق إلا أن يذعن لها ويطمئن إليها ويجد فيها من الراحة والبهجة ما يرضيه . فإذا استطاع الذين يحبون هذا الشعر الحديث أن يقدموا إلينا منه ما يمتعنا حقاً فمن الحمق أن ننكره أو نلتوى عنه لا لشىء إلا لأنه لم يلتزم ما كان القدماء يلتزمون من الأوزان والقوافى .

وابتكار الشعر الحديث والافتنان فى هذا الابتكار ليس شيئاً يمتاز به شعراء العرب المعاصرون عن الأمم الأخرى . وإنما هو شىء قد سبق إليه

شعراء الغرب منذ وقت طويل ، فشعراؤنا حين يجددون لا يبتكرون وإنما يقلدون قوماً سبقوهم . وليس عليهم من ذلك بأس إذا أجادوا وأحسنوا وعرفوا كيف يبلغون من نفوس معاصريهم ما بلغ شعراء الغرب من نفوس الغربيين على ما يكون بين الغربيين من اختلاف اللغات وتباعد الأذواق ، بل ليس شبابنا من العرب المعاصرين حين ينشئون شعرهم الحديث مبتكرين بالقياس إلى الشعراء القدماء من العرب ، فما أكثر ما تطورت أوزان الشعر العربى القديم وقوافيه والدارسون للأدب العربى يعلمون حق العلم أن الشعر العربى لم يكد يعيش نصف قرن بعد ظهور الإسلام حتى أخذت أوزانه تخضع لألوان من التطور . دخلت عليه الموسيقى التى جاءت بها الشعوب المغلوبة ، ودخلت عليه حضارة جديدة لم يألفها الشعراء العرب الجاهليون فتغيرت النفوس وتطورت الطباع ورقت الأذواق وصفت . ولم يكن للشعر بد من أن يتأثر بهذا كله ويصبح ملائماً للحضارة الجديدة وما أنشأت من طباع جديدة وأذواق جديدة أيضاً . وقصرت أوزان الشعر وخفت لتكون ملائمة للتوقيع الموسيقى الحديث . وظهر ذلك التطور أول ما ظهر فى الحجاز وفى المدينتين المقدستين بنوع خاص ، وكان الحجاز جديراً أن يكون قلعة المحافظة فى الأدب العربى ، ولكنه كان السابق إلى تطوير الشعر لأنه كان السابق إلى الترف ، والسابق إلى الموسيقى ، والسابق إلى الغناء ، والسابق بحكم هذا كله إلى تطوير الشعر بترقيق ألفاظه وتقصير أوزانه وتحضير صوره . . . ولا أذكر ما طرأ فى العراق من ألوان التطور الذى عرض للأدب كله شعره ونثره ، منذ انتصف القرن الثانى للهجرة ، فأما ما طرأ على الشعر فى الأندلس فهو أظهر وأشهر وأقرب إلى أوساط المثقفين من أن أحتاج إلى الوقوف عنده .

فليتوكل شبابنا من الشعراء على الله ولينشئوا لنا شعراً حرا أو مقيداً ، جديداً أو حديثاً ، ولكن ليكن هذا الشعر شائقاً رائعاً ، ويومئذ لن يروا

منا إلا تشجيعاً أى تشجيع . وترحيباً أى ترحيب . ودفاعاً عنهم إن احتاجوا إلى الدفاع » .

٢١

الحياة الجامعية ومستقبلها فى العالم العربى

درجت « هيئة الدراسات العربية » فى الجامعة الأمريكية فى بيروت على عقد مؤتمر كل عام تدعو فيه أكابر رجالات الفكر لبحث ناحية من نواحى الحياة العربية المعاصرة . فكان موضوع البحث فى المؤتمر الأول : « العرب والحضارة الحديثة » . وموضوع البحث فى المؤتمر الثانى : « مستقبل العالم العربى » وموضوع البحث فى المؤتمر الثالث : « المجتمع العربى » . وموضوع البحث فى المؤتمر الرابع : « فى الأدب العربى الحديث » . ورأت الهيئة أن يكون موضوع مؤتمرها الخامس : « مهمة الجامعة فى العالم العربى » فدعت الدكتور طه حسين وبعض الأساتذة الجامعيين لدراسة هذا الموضوع .

وقبل الدكتور طه الدعوة . وهو جامعى عريق : طالباً وأستاذاً وعميداً ومديراً . فقد نشأ ، كما يعلم الكثيرون ، مع نشأة الجامعة المصرية . ومر بظروف قاسية إلى أن بلغ مكانه السامق . كما عاش فترات عصيبة فى بدء شبابه وهو يدرس فى الجامعة الأزهرية . ثم من مصر إلى السربون والكولبيج دو فرانس فى باريس ، لذلك كان لرأيه الحكيم أثره البليغ فى تصوير العلل والأمراض ووصف الدواء الناجع . . .

ولما كاد يصل إلى بيروت فى الأسبوع الأخير من شهر نيسان عام ١٩٥٥ حتى استقبلته الهيئات الفكرية من جامعيين وأدباء وشعراء وصحفيين ومن ممثلين رسميين عن الدولة استقبالاً - أروع استقبال .

وحضر المؤتمر واستمع إلى المحاضرين واشترك فى المناقشات ، ودام المؤتمر قرابة أسبوع كان الأساتذة والطلاب يحيطون بالدكتور إحاطة السوار بالمعصم كما يقول المثل العربى . وكان يجيب عن الأسئلة بروحه السمحة وبيانه العذب . وكانت أقواله وأحاديثه سرعان ما تنقل إلى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية فيقرأها الجمهور بلذة وشوق . وقد أشار إلى ذلك أديب لبنانى بقوله :

« جاء أسبوعاً إلى لبنان ، فتجددت بوجوده (موضة) . . . الأدب ، وعاد بفضله إلى المجالس حديث الأدب والأدباء وبحث النظريات الأدبية ، وانشغل الناس بأخبار مناظراته ومحاضراته وأحاديثه وزياراته ، إلى جانب انشغالهم بالشئون السياسية ، بعد أن كانت السياسة تستأثر بأوقاتهم وأفكارهم . عادت الصحف تجد مجالا لنشر أخبار المناظرات ، ولذكر الجامعات والكليات والمؤسسات ، ونشر صور عن أشخاص يجتمعون بسبب غير سياسى » .

لقد كان فى ظن الدكتور طه أن هذا الأسبوع الذى يقضيه فى لبنان سيتيح له الراحة ، بعد أعماله الجسام فى القاهرة ، وأن ساعة وبعض ساعة يلقى فيها محاضرته ثم يفر إلى الجبل فيرتاح ويستمتع بنسيمه العليل ، ولكن ظنه خاب ، فما يكاد يفرغ من مهمة حتى تلقاه مهمة أخرى ، وجاءه ذات يوم طلاب دائرتى الأدب والتاريخ فى الجامعة يطلبون عقد جلسات أدبية ، فلم يرفض طلبهم ، وجلسوا إليه يمطرونه بشتى أسئلتهم فكان يجيب عليها ، كما يقول الدكتور نجم ، بألفة وود وإخلاص ، ناضياً عن نفسه ثياب الرسميات مرتدّاً إلى فطرته الأصيلة ، ورسالته الكريمة التى اضطلع يحملها ثلث قرن من الزمان ، وهى رسالة الأستاذ الجامعى الذى عرف دائماً بإخلاصه فى العمل ، وبحدبه على تلاميذه ، ومريديه ، وإيثاره لهم ، وحرصه على مصلحتهم .

وهكذا كانت الجلسة القصيرة تجسيماً عمليا لأفكاره التى أذاعها على الناس فى محاضرته عن مستقبل الجامعة فى العالم العربى .

ولا مجال هنا لتلخيص هذه المحاضرة ، وقد ظل أكثر من ساعة يتحدث ولكن حسبنا الإشارة إلى بعض فقراتها . . .

فقد تساءل : ما عسى أن تكون جامعاتنا غداً ؟ وقبل أن يجيب عن هذا السؤال ، قال : يجب أن نلقى سؤالا آخر وأن نجيب عنه :

ماذا نريد أن نكون نحن غدا ؟

ماذا نريد أن تكون عليه حياتنا غداً ؟

أنريد أن نظل بعد سنين قليلة أو كثيرة ، كما نحن الآن ؟ غير مستكملين لشخصيتنا ، غير محققين لآمالنا وأمانينا ، غير محققين لكرامتنا واستقلالنا ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن ؟

نلم بأطراف من المعرفة دون أن نتفهمها ، كما ينبغى للإنسان الكريم الحر أن يتعمق المعرفة ، فى كل ما يحاول من الأمر ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن خاطفين ، نخطف العلم من هنا وهناك ، دون أن يكون العلم مستقرا بيننا ، متأصلا فى نفوسنا ، ودون أن نجول ونصول فى العلم ، كأننا هو ، وكأنه نحن ، كأن ليس بيننا وبينه فرق ، ودون أن نبرأ من هذه الغربة الغريبة المنكرة ، التى يجدها كل واحد منا حين يريد أن يتعمق علماً من العلوم ، وحين يريد أن يتقن فنا من فنون المعرفة مهما يكن ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن ؟

ننتظر الخير الثقافى والعقلى والفنى من الترجمة . ننقلها عن هذه اللغة أو تلك ونسعى إليها فى هذا الوطن الأجنبى أو ذاك . .

أم نريد أن نكون أصلاء فى هذا كله ، وأن نترجم لا عن حاجة ،

بل عن ميل إلى الاستطلاع ، وأن نترجم لا لنأخذ فحسب ، بل نترجم ليترجم غيرنا عنا ، أن نترجم من الفرنسية إلى العربية ، لا لأننا محتاجون إلى هذه الترجمة ، بل لأننا نحب أن نعرف ماذا يقول زملاؤنا الفرنسيون ، ولأننا نحب أن يترجم الفرنسيون عنا ، وأن يعرفوا ماذا يقول زملاؤهم العرب . وقولوا مثل هذا بالقياس إلى الإنجليز والألمان والأمريكيين والإيطاليين . وما شئتم من الأمم الحية الكبرى .

أما إن كنا نريد أن نظل كما نحن ، فمستقبل الجامعة بسيط ، وهو أن تظل حيث هى ، كما نظل نحن كما نحن ، أشبه شيء بالضفادع فى قاع فيه قليل من ماء ضئيل ، نتصايح ، ويصح فينا قول الأخطل :

تنق بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

وأؤكد لكم أن حيات البحر كثيرة ، وأنها ترقبنا ، ولا تنتظر أن ندعوها وإنما تنتظر أن نذودها عنا ، أن نردها أعنف الرد حينا ، وألطف الرد حيناً آخر .

لا نريد إذن ، فيما أعتقد ، أن نظل ضفادع تتجاوب فى ظلمات الليل ، ونذل على أنفسنا المستعمرين من هنا أو هناك ، وإنما نريد أن نكون رجالا وأن نترك حوار الضفادع إلى طور الرجال ، وأن نبرأ من قول مسيلمة فيما يروى عنه من قرآنه ذاك :

« يا ضفدع بنت ضفدع ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » .

وقد أهاب بالجامعيين أنلا يكونوا كهذه الضفادع ، لا تمنع شارباً ولا تكدر ماء ، ولكن أرادهم أن يمنعوا الشاربين حين تقتضى مصلحة الأمة منعهم من الشرب ، وأن يكدروا عليهم ماءنا إذا أردنا ألا يشربوه .

ولاسبيل إلى ذلك إلا أن تتطور حياتنا إلى حيث نبلغ ما نريد . وسبيلنا إلى التطور إنما هو الجامعيات أولا ، والجامعات آخرا ، والجامعات قبل كل شيء وبعد كل شيء .

وقال : إن التطور لا يأتينا من خارج . وإنما يأتينا من ذات نفوسنا . يأتينا من ذات نفوسنا عند ما نهذب هذه النفوس ، وعندما نصفي أذواقها . نذكي قلوبها وعقولها . وعند ما نتيح لها أن تقوى فيها الملكات المدركة القاهرة الواعية . التي تتسلط على الحس والشعور ، والتي تتسلط على قوى الإنسان كله . فتدفعه إلى الأمل ثم تدفعه إلى العمل ، ثم تدفعه إلى الإنتاج ، ثم تجعله وكأنه شجى فى حلق الذين يريدون به المكروه .

٢٢

نقل بعض مؤلفاته إلى عدة لغات

لم تقف شهرة طه حسين عند حدود مصر والبلاد العربية بل تخطتها إلى شتى أقطار الشرق والغرب ، وقدرت الجامعات الكبرى مواهبه العلمية فمنحته الدكتوراه الفخرية ، أذكر منها جامعة ليون ومدريد وكمبردج وغيرها. وترجمت بعض كتبه إلى عدة لغات أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ — الأيام : الجزء الأول — وقد ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والعبرية والصينية والروسية والفارسية .
٢ — الأيام : الجزء الثانى — إلى الفرنسية والروسية .
٣ — دعاء الكروان : إلى الفرنسية .
٤ — شجرة البؤس : إلى الفرنسية .
٥ — أديب : إلى الفرنسية .

٦ — مستقبل الثقافة فى مصر : ترجمة ملخصة إلى الفرنسية .
٧ — الوعد الحق : إلى الفارسية .
٨ — على وبنوه : إلى الفارسية وإلى الأوردية .

وما تزال دوائر الفكر العالمية معنية بحياته وأدبه ، وآخر ما صدر عنه كتاب بالإيطالية ألفه علماء إيطاليون كتب فيه كل واحد منهم بحثاً أو مقالا .

وقد سئل عن هؤلاء المؤلفين فقال إنه لا يعرف من هؤلاء العلماء إلا عدداً قليلا منهم : كابريللى الأستاذ فى جامعة روما ، وآنستان أديبتان فى جامعة نابولى ، وثالثة هى ابنة المستشرق الإيطالى نالليو .

وصدرت عدة كتب فى عدة لغات وهى تؤرخ حياته وتعرض إلى كتبه وآرائه .

وفى إلماعنا إلى هذه الناحية أردنا أن نشير إلى أن الغرب كان فى شوق إلى أن يعرف شيئاً عن تطور الفكر العربى وعن الأدب العربى الحديث خلال هذه الفترة منذ بداية القرن العشرين فالتفت إلى أدب طه حسين وإلى الدور الذى لعبه فى تاريخ أدبنا المعاصر فترجمت بعض آثاره ، وكانت بدء انطلاقة لترجمة آثار غيره من الأدباء وفى طليعتهم الروائى الكبير محمود تيمور والقصصى الفذ توفيق الحكيم .

٢٣

كتبه الإسلامية تدحض آراء الذين اتهموه بدينه

ويمضى الدكتور طه فى سيره مع الأحداث الفكرية ، فى مصر وفى عواصم الشرق والغرب ، وبرغم حضوره العديد من المؤتمرات والندوات

متحدثاً ومحاضراً — تظل أمتع الساعات عنده هى التى يخلو فيها إلى نفسه . مع الكتب والمراجع . يقرأ له ، حتى إذا استوى الموضوع فى ذهنه . أخذ يملى أروع الصفحات وأبلغها فى الأدب والتاريخ . . .

إنسان لا يعرف الراحة . عاش مع تاريخ الفكر الإنسانى فى شتى عصوره . وهو أبرع من يستخلص العبر . فما يكاد يعرض إلى حادث من الأحداث مهما كان شائكاً . ومهما كان عويصاً حتى يجلوه جلاء واضحاً فيقرؤه القارئ بكثير من اللذة والفهم . ويشعر كأنه يعيش فتراته وملابساته . بل كأنه يستمع إلى أنشودة أو يقرأ قصة ممتعة...

تلمس ذلك فى جميع كتبه : فى القصص والترجمات والتلخيصات وكتب الأدب والتاريخ .

فى إحدى رحلاته إلى أوربا حمل معه . كما قلت . صفوة من المصادر لكتابه الجزء الثانى من « الفتنة الكبرى » — تلك الفتنة التى سفكت فيها الدماء وأزهقت النفوس ، وانتهكت الحرمات . وقضى فيها على سنة الخلافة الراشدة . فما كاد يفرغ من كتابة أكثر فصوله فى مصيفه الإيطالى سنة ١٩٥٢ حتى عاد إلى القاهرة ليتمه . فصدر عام ١٩٥٣ (١) .

ويعلم القراء أن أعوص فترة من فترات التاريخ الإسلامى هى التى واجهها المسلمون بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان . . .

للمؤرخين القدامى والمعاصرين آراء متباينة فى هذه الفتنة الكبرى . منهم من يستبد به الهوى لآل البيت وللإمام على . ومنهم من ينحاز إلى معاوية فينحى باللائمة على الإمام على لتخليه عن سياسة الفتح وانشغاله بحروب داخلية فتت فى عضد المسلمين وأثارت بينهم الضغائن والأحقاد والثورات .

---

(١) كتابه « على وبنوه » .

وولج الدكتور طه هذا الميدان فكان المؤرخ المنصف الذى يعرض الأحداث مجردة عن كل عصبية أو هوى ، فقدم للقارئ زبدة وافية من تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها .

وبعد كتابه قصة « الفتنة الكبرى » وبعد أن عاش مع خضم هذه الأحداث يقرأ المطولات من الكتب — رأى أن يكتب سيرة الخليفتين اللذين كان لهما شأن وأى شأن فى توطيد دعائم الإسلام ونشر رسالته كما وضع أسسها وقواعدها النبى محمد صلى الله عليه وسلم فكتب قصة الشيخين : أبى بكر وعمر . وعوداً إلى المنابع الأولى لرسالة الإسلام كتب سيرة النبى الكريم محمد فى كتاب عنوانه «مرآة الإسلام» وقد اعتمد أكثر ما اعتمد على القرآن الكريم ، فكانت آياته البينات هى الركيزة التى اعتمد عليها فى كتابة الدعوة الإسلامية ورسالة الإسلام فى أوضح صورها وأبهى مقاصدها .

وفصول الكتاب متتابعة متماسكة تصور للقارئ حقيقة الإسلام وروحه وأهدافه ونزعاته وأثره فى الرقى العقلى وفى الحضارة الإنسانية .

فمن فصوله فصل عن معجزة القرآن ، وعلى كثرة ما قرأت عن هذه الناحية مما كتبه المفسرون وبلغاء الكتاب فلم يوفق كاتب أو مفسر بتصوير معجزة القرآن كما صورها طه حسين بإيجاز وبلاغة مستمدة من بلاغة وإعجاز القرآن .

وكأنى به ، بإصداره هذه الكتب عن نشأة الإسلام ورجالاته أراد أن يرد ، بصورة غير مباشرة ، على أولئك الذين اتهموه فى دينه ويقينه .

فحين لمع اسمه حاملا رسالة التجديد ، هو وصفوة من إخوانه ، أخذت الاتهامات الباطلة تنهال عليهم ، فاعتبروا رسالة تجديد الفكر ، والسير مع مقتضيات الحضارة ، والاستجابة لنزعات التطور ، وهز الوسنانين الذين يعيشون فى الظلمات — اعتبر الجامدون هذه الرسالة من صميم الإلحاد

وهرطقة . فاتهم هو . كما اتهم الدكتور هيكل وكل من دعا إلى التجديد . اتهموا اتهامات باطلة وما كانت رسالتهم إلا تجديد الفكر العربي ليلعب دوره في تاريخ الحضارة الإنسانية على أن تستمد جذورها من ينابيع الإسلام .

وإني لأذكر أن صحفيا كبيراً من إخواننا المتمصرين وقد حمل لواء المعارضة والتهديم بطه حسين وصحبه قال لي مرة :

إن هذا النفر من الكتاب أداة من أدوات التبشير والاستعمار . وإنهم سيهدمون الإسلام باسم التجديد ! — هكذا —

ولما قلت له : إنني أقرأ ما يكتبون . وأعي ما أقرأ . فلم أر في كل ما قرأته مما خطته يراعتهم أن كلمة تمس جوهر الدين . بل العكس هو الصحيح . فهم يناضلون بحرارة عن تراثنا الفكري . ويهاجمون الاستعمار وأذنابه بضراوة — لما قلت له ذلك . هز رأسه مغتاظاً وقال إنك واهم . وها أنا ذا أعطيك المفتاح لتنفذ إلى طواياهم وخبيئة نفوسهم !

ومرت الأيام . . .

وصدر لهيكل ولطه كتبهما الإسلامية فكانت الحجة الكبرى لدحض ترهات أولئك الأغبياء الذين يعرقلون سير الفكر العربي بإثارة هذه الاتهامات . . .

ولم يتح لي أن أرى صاحب المفتاح لأقول له يا صديقي : لقد فتحت باب كتبهم على مصراعيه . ونفذت إلى كل جملة وكل كلمة . ما ظهر منها وما استتر ، فلم أجد إلا الإيمان المجسد والدعوة الصارخة للدين الإسلام الذي بشر بأعظم رسالة إنسانية في تاريخ البشرية .

واتهام كل مفكر حر بعقيدته . ورميه بالزندقة والإلحاد لوثة قديمة عرفتها كل العصور وكل الأمم ولا مجال للتبسط في عوامل هذه اللوثة التي يثيرها الجامدون الذين تضيق أفهامهم لما تتسع له أفهام غيرهم الذين كلما ازدادوا اطلاعاً عظم إيمانهم وازداد يقينهم .

وقبل طه حسين اتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية — اتهم بالكفر والزندقة . ويروى الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو من أعلام المفكرين ومدرس الفلسفة الإسلامية فى جامعة مصر الحادث الآتى :

قال رحمه الله :

« كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا عفا الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ، ويمثلونه خطراً على الدين داهماً ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفر بدينى من أن ألقى الأستاذ أو أستمع إلى دروسه مع أنه كان صديق والدى! وحضرت دروسه مرة لأشهد كيف تشوه وجوه الملحدين وتتشوه معها عقولهم وقلوبهم ، فلما رأيت الرجل بالرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك الوقت : اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين :

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

٢٤

مع الخبير العالمى فى شئون المكفوفين

ما تكاد تصل إلى مصر شخصية عالمية من المرموقين إلا وتفكر بزيارته قبل زيارة المعالم المصرية من آثار ومتاحف ومؤسسات حديثة وشخصيات .

فحين زارها الخبير العالمى فى شئون المكفوفين السير كلوتا ماكنزى كانت زيارة الدكتور طه فى طليعة برنامجه . . . فلم يكد يضع قدمه على أرض مطار القاهرة حتى قال لمستقبليه : أريد أن ألتقى به . ذلك الرجل العظيم ، ولما سئل من هو العظيم الذى يريد لقاءه قال :

إنه الدكتور طه حسين .

وفى الفيللا الأنيقة التى يسكنها الدكتور طه حسين بالزمالك . وقف عميد الأدب العربى يستقبل الرجل الذى جاء يسأل عنه . ويقوده إلى غرفة الاستقبال الجميلة فى بيته .

ودار الحديث بين الضيف الكبير الذى فقد بصره فى الحرب الأولى . فاهتم بشئون العميان وأخذ على عاتقه أن ينير الطريق أمامهم ويدافع عن مصالحهم ، وأبدى عدة اقتراحات يراها كفيلة برعاية المكفوفين فى مصر . فناقشه الدكتور طه حسين بدقة . ودام اجتماعهما أكثر من ساعة .

وعند ما انصرف السير ماكنزى من بيت عميد الأدب العربى سألناه رأيه فيه ، وكان قد بلغ سيارته ، فتوقف عن السير واستدار نحونا ، ثم قال :

« أعتقد أن مصر يجب أن تفخر بالدكتور طه حسين ، فهو عبقرية فذة قل أن يجود الزمان بمثلها . . . إننى أغبطكم ياسيدى لأنكم تعيشون على الأرض التى أنجبت طه حسين كما أغبط نفسى لأننى تعرفت إليه » .

وفى اليوم التالى سافر الدكتور ماكنزى بالطائرة ليستكمل جولته بين المكفوفين حول العالم ، وقبل أن تحلق به الطائرة ، قال : « لقد اتفقت مع الدكتور طه حسين على أن أكتب له بمقترحاتى للنهوض بأبناء النور فى مصر . وقد وعدنى بتقديمها إلى المسئولين ، وكل أملى فى الدنيا أن يتمتع المكفوفون فى العالم بحقوقهم كآدميين ، فيجب أن يكون حب المجتمع لهم وعطفه عليهم هو النور الذى يهديهم سواء السبيل . . . ومن يدرى فقد يكون من بين هؤلاء هيلين كيلر أخرى أو طه حسين آخر » (١) .

---

(١) مجلة المصور أكتوبر عام ١٩٥٤ العدد ١٥٦٨ .

٢٥

آراء بعض تلاميذه فى منهجه الأدبى الذى طبع جيلاً بأكمله

وما أكثر تلاميذه فى مصر وفى الشرق العربى ، وحتى فى عواصم الغرب والشرق سواء الذين تتلمذوا عليه مباشرة أو الذين أخذوا عنه وهم خارج الجامعة .

إنهم كثر يعدون بالمئات والآلاف ولا أتزيد حين أقول بعشرات الآلاف ، فكل من اجتذبه الأدب وقرأ كتبه سار على نهجه . . .

والدراسات المنهجية التى تغمر حياة الفكر سواء منها التى صدرت عن الجامعيين أو غير الجامعيين — مدينة له ، أريد إلى مدرسته الأدبية التى فتحت آفاق البحث المنهجى الحر أمام الكتاب والباحثين .

ويتبوأ تلامذته اليوم المقام الأسمى فى بلادهم ، فما من بقعة من بقاع العربية من المحيط إلى الخليج ، إلا وتلقى صفوة من تلاميذه يشغلون أرفع المراكز الثقافية ويحملون عبء تطور الأدب على النهج الذى رسم خطوطه . . .

وفى صدد الحديث عن الأثر الذى تركه فى نفوس تلاميذه يقول الأستاذ رشدى صالح وهو أحدهم :

إن تلاميذ أدبك ، هم أحرص الناس على رواء اللغة الشريفة . . . واستمرار مجدها . . . وأكثرهم إنتاجاً فى أدبها ، وعلومها . . . وأوفرهم درساً لها . وبحثاً فى أسرارها . . . فمنذ أن فتحت الجامعة أبوابها تخرج فيها أكثر الذين ينظمون الشعر ويؤلفون القصص والمسرحيات ويحملون أعباء النقد الأدبى . ويسهرون الليل والنهار يدرسون بلاغتها وطرائق نطقها وتاريخها ، وميراثها العظيم .

وأكثر ما أخرجت المطابع من كتب . ورسائل علمية . ومقالات سيارة . كتبه هؤلاء الذين تعلموا على أيدى أساتذة الأدب السابقين على جيلنا .

وكم قلنا — فيما بيننا و بين أنفسنا — إن طه حسين . فى جوهره . يحمل صفات الفلاح الأصيل . . . صلابة فى العزيمة . ونفاذاً فى البصيرة . ورغبة فى الخلق واستمرار الحياة .

وكذلك كان هؤلاء الأساتذة الأعلام الذين ملأوا الجامعة « حيوية » و إنتاجاً وأقاموا تقاليد الدراسة والحياة ، فى هذه المنارات العالمية .

وتقول الدكتورة سهير القلماوى :

« . . . ولقد علمنا طه حسين كثيراً غير العلم المدون فى الكتب . علمنا كيف نعشق الآفاق الرحبة وكيف نفتح أذهاننا لكل جديد . ولا نحكم على شىء إلا بعد أن نعرفه .

إن منهجه الذى يوصف بأنه منهج ديكارتى (نسبة إلى ديكارت الذى شغف طه حسين بفلسفته وتأثر بها دون شك) هو المنهج الذى صبغ طريقة تفكيرنا نحن أيضاً زمناً طويلا تأثراً به . . .

وعلمنا طه حسين كذلك و بنفس القدر أن نحب الحياة فى تجددها . وأن ننتصر لكل مظاهر الحياة على أى مظهر من مظاهر الجمود أو الشلل أو الموت .

إنه مشغوف بالتجديد . محب للشباب . مناصر للحياة المتجددة ، يكره الركود والجمود وتحجر الفكر . . .

أما خلقيات الأستاذ فلقد صبغنا بصبغتها . وما زلنا إلى اليوم نتوق إلى أن نكون مثله أو قريبين منه .

ما اعتذر عن درسه يوماً إلا مضطرا أشد الاضطرار ، وما دخل درسه إلا فى الميعاد و بالضبط دون إبطاء . وما شرب سيجارة فى درس . ولا تحدث

إلينا إلا فى الدرس وما يمكن أن يتعلق بالدرس من شئون حياتنا نحن لا حياته هو . . . »

ويقول الدكتور شوقى ضيف :

« . . . أما تلاميذه الذين كانوا يتلقون عنه محاضراته فقد ملأ قلوبهم فتنة بالبحث فيه بحثاً علمياً فنياً دقيقا ، وسرعان ماأخذوا يدرسون أنحاء حياتنا الأدبية القديمة والحديثة درساً قويا خصباً ، ولم تمض سنوات طويلة حتى وضعت مذاهب أسلافنا الفنية فى الشعر والنثر ، وتوالت الدراسات فى أدبنا العربى القديم والمعاصر وفنونه المختلفة ، ودرست بعض الشخصيات الأدبية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية قيمة ، وأرخت بعض عصورنا الأدبية تأريخاً علميا فنيا دقيقا .

ونشرت بجانب ذلك نصوص أدبية كثيرة نشرا علميا بديعا ، وأخذت دراسات فقه اللغة العربية تنمو نموا واسعا .

ولعلى لا أبالغ إذا قلت إن كل الجهود الأدبية والعلمية التى نهضت وتنهض بها جامعاتنا إنما هى ثمرة طبيعية لأصول البحث الأدبى التى وطدها طه حسين بمحاضراته ومصنفاته ، ومقالاته التى بثها فى تلاميذه . ومضوا يبثونها فى تلاميذهم ، مما يجعله بحق الرائد الموجه لنهضتنا العلمية فى الدراسات الأدبية . . .

ونختتم هذا الفصل بكلمة للقصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور الذى وإن لم يتتلمذ عليه فى الجامعة . فقد تتلمذ ، كالكثيرين ، على كتبه ودراساته قال :

« . . . أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة ، من دعوات وهتفات فى الوطنية والسياسة . وفى العلم والدين ، وفى الثقافة والأدب . فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة : مصطفى كامل ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد ،

وأشباههم القليلين ، أولئك الذين أوقدوا نار الثورة . وأضاءوا منار الحرية . وحملوا لواء التقدم والتطور . وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة فى عصرنا الحاضر . . .

فكر مستقل ، وروح خيرة . وصبغة فنان .

وقد التأمت هذه العناصر فى شخصية كمنت فيها بذرة النبوغ منذ البداءة وظلت تؤتى ثمرها على الأيام ولا تزال . . .

بالفكر المستقل استطاع " طه حسين " أن يبث فى حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه . ويبعث فينا نزعة التجديد بأكرم ما تشير إليه .

وبالروح الخيرة مضى " طه حسين " يرسم لنفسه سلوكاً إنسانيا رفيقاً . لم يحد عنه حين جرى قلمه بتصوير الحياة والأحياء . وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعى فى أصالة وصدق . . .

وأما صبغة الفنان فى شخصية " طه حسين " فهى ميسم يطبع أعماله الأدبية جميعاً ، حتى ما كان منها خالصاً للبحث والدرس . . . مما يفتقر إلى التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج .

وأعنى بتلك الصبغة فيه ألا يتناول موضوعاً . ولا يرسم صورة . إلا كان فيما يتناول وما يرسم فناناً أصيلا يؤاتيه الخلق والابتكار ولا يكاد يخطئه أو يخلفه . . .

وبهذه الصبغة التى استيسرت له أصبح "طه حسين" أغنى كتاب عصره عن أن يعلن اسمه بين ما ينشر له . . ذلك بأن أسلوبه طعما ومذاقاً . بل اللفظ والعبارة . إنما هو أسلوب أديب فذ ، ينفرد بخصائصه . ولا تخفى ملامحه ، هو أسلوب نابغة أدبنا العربى طه حسين » .

٢٦

وفاؤه لأصدقائه

ميزة الوفاء لأصدقائه وزملائه وتلامذته هى بعض خصائصه النبيلة ، وقد عاش والمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد أعنف الأزمات التى مرت بتاريخ مصر السياسى والفكرى فى منتصف القرن العشرين ، وكان لكل واحد منهما وجهة نظره ، ومع تباين وجهات النظر التى كادت تصل إلى حد الخصومة كانا يلتقيان عند هدف واحد وهو الحرص على إعزاز دولة الأدب ورفع رايته العالمية .

وكان لكل جهبذ من هذين الجهبذين روّادهما المخلصون ، وكثيراً ما كانت تثور بينهم المناقشات ويثور الجدل فما تكاد تفرغ جعبتهم من هذر الكلام وثرثرته حتى يضحك الجهبذان من حماسة الرواد ، ويلتقيان كأصفى ما يكون الصديقان الحميمان . . .

وقد شهد تاريخ الأدب المعاصر عنف هذه الخصومات الأدبية ، فكانت شخصية كل واحد منهما هى هى فى تألقها وسطوع نجمها .

وكان القراء هم الذين يكسبون من وراء هذه الخصومة التى كلما نفخ فى نارها ازدادت نوراً وبهراً .

لقد عاشا منفردين ومتصلين معاً .

إذ لكل واحد نهجه وأسلوبه ومزاجه .

فثقافة العقاد سكسونية ، وطه حسين لاتينية ، وإن كانت العربية هى الجذور العميقة لثقافتهما التى حددا بها أسلوب الكتابة ونمط التفكير .

وكثيراً ما ثار الجدل بينهما فى جلسات المجلس الأعلى لرعاية الفنون

والآداب والعلوم الاجتماعية . فكان العقاد . رحمه الله . يندفع كالبركان الثائر فى شرح رأى من آرائه . وكان يتمسك به كأنه آية منزلة . وهو شديد الاعتزاز بنفسه لا يلين ولا يتراجع . ويستمع الأعضاء . ويدلى كل واحد برأيه . حتى إذا اشتد الجدل انبرى الدكتور طه يتحدث بهدوئه المتميز وبيانه الساحر . وبرته العذبة ، واستطراداته التى تستمد وقائعها وقوتها من آدابنا الأصيلة ومناهج الآداب العالمية . ويستمع العقاد فتهدأ ثائرته . ويعود الجدل . وما هى لحظات تطول أو تقصر حتى تتلاقى وجهات النظر ، وإن اختلفت الطرق التى سلكت إليها .

شأن العقاد فى المجلس الأعلى كشأنه فى المجمع اللغوى لا يكادان يختلفان حتى يتلاقيا كأصفى ما يكون اللقاء . . .

وهذه بعض صفات الموهوبين الذين تمتلئ نفوسهم بالحب والصفاء . وتخلو من الحقد والبغض والضغينة .

* * *

مرت بى هذه الخواطر وأنا أقرأ الكلمة البليغة التى رثى فيها طه حسين زميله العقاد .

كان العقاد قد انقطع عن جلسات المجلس لمرض ألم به . وقد قلق طه حسين بصفته رئيس المجلس لمرض هذا الزميل . فلم يكد ينعاه الناعى حتى ذهل وحزن وعبر فى كلمة بليغة عما كان يكنه لهذا العملاق من صادق الحب وبالغ التقدير ، فى الوقت الذى كان البعض يظنون الظنون فى صداقتهما وسماحة خلقهما .

وأثبت نص هذه الكلمة الصادقة التى فاض بها قلب الدكتور طه . فهى نثر دموع أكثر منها كلمة رثاء ، لأنها تصور بعض ما يكنه عميد الأدب لعملاق الأدب ! !

قال :

وكذلك فارقتنا أيها الأخ الكريم ، والصديق الحميم والزميل العزيز . . فارقتنا فجأة على غير أذان لنا بهذا الفراق وعلى غير انتظار من عوادك وأطبائك . ومن أهلك الذين كانوا يحوطونك بعنايتهم ورعايتهم . . . والذين كنا نسألهم عنك فلا نسمع منهم إلا خيراً أى خير . . .

كانوا ينبئوننا بأن صحتك تتقدم فى اطراد . وأنك توشك أن تسترد العافية كاملة والنشاط موفوراً . ولقد سألتهم حين تقدم الليل فأنبأونى بأنك على خير حال وبأنك تستريح من مرضك بعد أن انجلى هذا المرض ... ولقد سعدت بذلك السعادة كلها ، واستبشرت به كل الاستبشار ، وعرفت أن الملتقى فى « مجمع اللغة العربية » قريب . وأن زملاءك جميعاً سينعمون بهذا اللقاء وسيسعدون بمشاركتك لهم فيما ينهضون به من الأعباء . . .

ولكنى أصبح فإذا النبأ يفجؤنى فيقع على موقع الصاعقة . وأقسم لقد ذهلت له ذهولا أفقدنى الشعور بمن حولى . أو كاد يفقدنى هذا الشعور . . . وقد احتجت إلى وقت غير قصير وعناية متصلة لأثوب إلى نفسى أو لتثوب نفسى إلى . ولقد لبثت ساعات لا أصدق هذا النبأ ولا أطمئن إليه حتى بعد أن رأيته فى كل صحف الصباح .

وأنا مع ذلك أعلم أن الموت حق وأن كل نفس ذائقة الموت كما يقول الله عز وجل . . .

ولكنى لم أكن أنتظر أن تسرع إليه أو أن يسرع إليك على هذا النحو ، وقد كنت أقوى الناس قوة وأعظمهم نشاطاً وأخصبهم حياة وأبعدهم عن مظاهر الضعف والفتور . ولكن الشاعر قد صدق كل الصدق حين قال :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

أجل أيها الأخ الكريم ، لقد عرف الموت كيف يختار حين صوب

سهمه إليك وسهام الموت لا تخطئ الغرض :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

إيه أيها الأخ الكريم ، إن موتك لم يفجع أسرتك وحدها ، ولا وطنك وحده . وإنما فجع العالم العربى كله . فقدكنت علماً من أعلام العروبة الشاهقة . ونجماً من نجومها المشرقة . ملأت الدنيا أدباً وحكمة وفلسفة وعلماً .

تألق نورك بين مواطنيك منذ شبابك الأول . وما لبث أن تجاوز وطنك وأشرق على العالم العربى كله ، ثم لم يلبث أن تجاوزه إلى المعنيين بشؤون الأدب العربى فى جميع أقطار الأرض حتى كأن الشاعر العربى القديم إنما رثاك بقوله :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وما أدرى عن أى جانب من جوانبك يمكن أن يتحدث عنك الذين يأخذون فى رثائك أو فى الترجمة لك . أعن نضالك السياسى الذى لم يعرف هوادة ولا ليناً . ولم تصرفك عنه الأحداث ولا الخطوب . ولم يثنك عن المضى فيه رغب ولا رهب . أم عن تجديدك فى الأدب شعراً ونثراً ونقداً ، أم عن تعمقك للتاريخ الإسلامى وإتقانك تصوير أعلام الإسلام . أم عن اقتحامك لمشكلات الفلسفة ونفوذك إلى لبها . أم عن تزودك من العلم على اختلاف ألوانه حتى ناظرت العلماء المتخصصين والمتفوقين . أم عن نفسك السمحة وروحك العذب وذوقك الصفو . أم عن خلقك الكريم وسيرتك النقية . أم عن وفائك للصديق وإنصافك للخصوم ، أم عن إيثارك للكرامة وحرصك عليها ومبالغتك فى هذا الحرص .

كل جانب من هذه الجوانب الكثيرة يحتاج إلى حديث طويل مفصل أى تفصيل . وما أحسب الذين يصفون جوانبك هذه كلها أو بعضها يبلغون الغاية من وصفها .

وما أعرف جملة تختصر جوانبك هذه كلها فى إيجاز ودقة وصدق إلا هذه الجملة التى أرسلت عن المتنبى فقيل عنه : إنه ملأ الدنيا وشغل الناس .

أنت أيها الأخ الكريم والصديق الحميم والزميل العزيز ملأت الدنيا حقا وشغلت الناس حقا . وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم فى حياتك .

ما أشد ما كان بينك وبينى من خصام فى السياسة أحياناً ، وفى الأدب أحياناً أخرى ! وما أحلى ما كان بينك وبينى على ذلك من مودة وإخاء ووفاء !

لقد أغضبت الأحرار الدستوريين ذات يوم حين قرأت كتاباً من كتبك فراقنى وأعجبنى . ولم أملك أن كتبت عنه فى السياسة مقرظاً ومثنياً . فغضب من غضب وسخط من سخط ولكن الحق كان فوق غضب أولئك وسخط هؤلاء .

ولقد ثار النواب الوفديون ذات يوم وألح متكلموهم أشد الإلحاح فى إبعادى عن الجامعة . وكنت أنت النائب الوفدى الوحيد الذى دفعه حب الحق وإيثار الوفاء إلى أن يقوم بين زملائه مدافعاً عنى .

فغضب من غضب يومئذ وسخط من سخط ، ولكنك جعلت الحق فوق غضب أولئك وسخط هؤلاء . وما أكثر ما كنا نختصم فى «مجمع اللغة العربية» ويشتد بيننا الخصام، ويحاول الزملاء أن يهدئوا من حدته فلا يبلغون شيئاً ، ولكننا نلتقى بعد ذلك أخوين متحابين كأن لم تكن بيننا مشادة وكأن لم يكن بيننا خصام .

فى ذمة الله أيها الأخ الكريم ، لقد فارقتنا على غير وداع واختطفك الموت من بيننا فجأة كأنه اختلسك منا اختلاساً ، ولكن أمثالك تموت

أجسامهم . لأن الموت حق على الأحياء جميعاً . ولكن ذكرهم لا يموت لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضاً . وسيوارى شخصك الكريم فى أطباق الثرى . ولكن القبر الذى سيحتوى شخصك لن يستأثر بك . فلك فى قلوب الذين يحبونك والذين ينتفعون بأدبك وعلمك ذكر لن يموت إلا بموتهم . ولكنهم لن يستأثروا بذكرك وإنما ستشاركهم فيه الأجيال التى تبقى ما بقى الدهر . . .

إنا إلى الله راجعون لقد أصبح حزنى عليك ألوانا
حزن اشتياق وحزن مرزأة إذا انقضى عاد كالذى كانا (١)

* * *

هذا الرثاء الصادر عن شعور صادق يدحض الإرهاصات التى يتنادر بها بعض الأدباء والمريدين فى مجالسهم الخاصة عن الخصومة بين العملاقين .

ولا علينا أن نثبت هنا بعض كلمات العقاد . رحمه الله . فى أدب طه حسين . وقد عرف العقاد طوال حياته بالصراحة والبعد عن المداجاة والنفاق . كما عرف . الدكتور طه بهذه الخصال النبيلة . ولكليهما مواقف واضحة فى التعبير عن آرائهما بدون جمجمة أو التواء . . .

فمن كلامه عن أسلوب طه حسين وثقافته الأدبية قوله :

إنه اطلع على الأدب العربى القديم اطلاعه الواسع الذى لاجدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الإغريق واللاتين الأقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الأدباء الأوربيين ولا سيما الفرنسيين .

---

(١) فاضت روح الأستاذ العقاد فى الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة الثالث عشر من شهر مارس عام ١٩٦٤ .

كل أولئك خليق أن يحبب إليه الصحة والمتانة والقوة و يبغض إليه الزيف والسخف والركاكة ، فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين وينبذ ما يستطيعه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل ، أو أصحاب الذوق السقيم ، وله فى ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد إلا بما يرضاه .

فالدكتور صحيح الأصول فى النقد ، وهو رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفيد مما يقتنع بصحته ، ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابى بعد دراسته للأساليب الأوربية ، فاتخذ له نمطاً يوافق علمه بالعربية الفصيحة ، وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل فى الكلام الأوربى ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة فى وقت واحد ، فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعاً وأوطأ من نوعه فى اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر فى اللغة الأوربية .

ولو كانت كتابته حديثاً محضاً لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرار ، ولو كانت تقريراً محضاً أو درساً محضاً لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذى لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أو درساً على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الأوربية وجرت على سياق قريب من سياق الدروس الأزهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم فلا يوافقها إلا ذلك الأسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ، ولأجل هذا الابتداع يغتفر ما فى كتابة الدكتور من إسهاب وتكرار .

وقد أفاد بأسلوبه هذا عمل من لم يفدهم الرأى ولم تقنعهم المناقشة ،

فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع . ورأوا كاتباً كبيراً يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة فى غير قيودها القديمة . وألفوا تعديد الأساليب وطرائق التعبير إلى غير انتهاء .

وذلك وحده فتح قدير .

* * *

وفى صدد أسلوب طه حسين يقول خليل ثابت صاحب « المقطم » ورئيس تحريرها :

المصرى محدث بارع . ينقل المخبر الصحافى المصرى الخبر فيرويه عليك فتستطيبه وتطرب . وإنه يحمله إليك مكتوباً تكون قد ضاعت روعته بين القلم والورق . وشاء الله أن يزف إلى مصر أديبها الأكبر مكفوف النظر . فكانت الطريقة المحتومة عليه فى الكتابة أن يحدث هو . وأن يسجل الحديث ؛ فطابقت براعة الكاتب فيه براعة المحدث ، وكان أسلوب طه حسين الكتابى أسلوب الحديث . ومن خصائص هذا الأسلوب أن يمضى فيه صاحبه عفو الخاطر الدافق . سهلا لين المراس مسرعاً مستسهلاً . مستوقفاً مستفهماً جازماً . ساخراً جاداً قافزاً مستطرداً مردداً معيداً . همه الأول أن يظل ظافراً بانتباه القارئ فلا يدع أذنه تفرغ من نبرة الصوت وتسكاب الكلام ، ولو جر ذلك إلى تجمد المعنى فى اضطراد اللفظ . أو جر إلى تعمد خلق المفاجآت .

* * *

عرفت النهضة الفكرية المعاصرة علمين من أعلام التجديد هما الدكتور محمد حسين هيكل — رحمه الله — والدكتور طه — أمد الله فى عمره . . . وبالرغم مما بينهما من مودة خالصة وإخاء أكيد منذ عهد

الشباب . أى منذ بداية عهدهما بالكتابة تحت إشراف أستاذ الجيل المرحوم أحمد لطفى السيد — بالرغم من هذه المودة الخالصة والإخاء الأكيد فقد كانا على خصام دائم — خصام محبب إلى نفوس القراء ، فما يكاد يكتب هيكل فى موضوع ما حتى ينبرى طه لنقده . أو بالعكس . ويذكر الكثيرون من زملائهما موضوع « الحضارة والحرب » الذى أثاره طه على صفحات جريدة « السفور » سنة ١٩١٥ أى فى بدء الحرب العالمية الأولى . وهل الحرب أداة للتطور الحضارى أو عامل لتدمير البشرية وإفنائها . وقدابتدع هذا الحوار ليخلق فى الأدب العربى الحديث فن الجدل فأخذ جانب الحرب وفضلها على الحضارة رغبة منه فى الجدل بينما أخذ هيكل الجانب الثانى (١) .

وهكذا ، فقد كانا يتصاولان دائماً فى رحاب الفكر ويكتبان بحوثاً

---

(١) فمن أقوال طه : « مثل الحرب مثل الديمة الغزيرة ترسلها السماء من غير حساب فتتفرق لها الجموع المحتشدة ويستتبع ذلك كثير من المضار ، ولكن السماء لا تكاد تقلع ، والماء لا يكاد يغيض ، حتى تكتسى الأرض حلة خضراء بهيجة فيها للحياة العقلية والجسمية مادة صالحة موفورة النفع . وذلك مثل الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر وتروى الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء . ولكن ما تكاد الدماء تجف حتى يهب الإنسان من وقفته الحائرة ، وإذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء . .

فليست الحرب كما يظن البعض نذيراً يؤذن بكساد المدنية وإفلاس الحضارة ، وإنما هى آية تغير فى الحياة الإنسانية ودليل انتقال من حال إلى حال ، أظهر منها نفعاً وأقرب إلى الكمال .

وقد رد هيكل ناقضاً رأى طه مصوراً نتائج الحرب فى الخراب والتدمير .

وجيهة فى الأدب المعاصر . وأزهرت الجريدة . وكان القراء هم الرابحين كما قلت .

وكان الدكتور طه يتهم الدكتور هيكل بعدم امتلاكه ناصية اللغة . وكان هيكل يتهم طه بلغته الأزهرية التى لا تستوعب المعانى الجديدة . وسألت الدكتور هيكل يوماً عن أدب طه فقال : وأرجو ألا تخونني ذاكرتى بنص تشبيهه : إن أدب طه كصنبور الماء لا تكاد تفتحه حتى ينهمر انهماراً بماء ثر عذب ، أو كزر الكهرباء لا تكاد تضغط عليه حتى يشع بباهر الأنوار من الأضواء . . .

لقد عملا معا فى « الجريدة » و « السفور » و « السياسة » اليومية والأسبوعية . ولكل واحد نهجه وأسلوبه . ثم التقيا فى وزارة المعارف : هيكل وزيراً وطه مستشاراً . ويدخل المرؤوس على رئيسه فإذا هيكل برم بالجو الوزارى . ضيق الصدر بالرغم مما عرف عنه من طول الباع وسعة الصدر ... فالموظفون هم هم . مطواعون أمام رئيسهم . كبيرهم وصغيرهم . لا يكاد يبدى رأياً حتى يسمع من الجميع كلمة « نعم » ، وهو يريد أن يسمع من أحدهم كلمة « لا » . أن يناقشه وينقض رأيه ، ويجيبه طه : هون عليك . . . فهأنذا أقول « لا » . . .

ولنترك للدكتور طه أن يشير إلى هذه المداعبة التى جرت عرضاً فى رثائه لصديقه . وكان رثاؤه قطعة سامية من أدب الرثاء ، يتجلى فيه صدق العاطفة ونبل الوفاء :

« ... ولقد كان هيكل زميل الشباب وصديق الكهولة وأخا الشيخوخة . تعارفنا حين كنا ناشئين فى مكتب أستاذنا "أحمد لطفى السيد" عند ما كان مديراً للجريدة . كنا نختلف إليه فى الضحى بين حين وحين . فنشهد عمله فى إدارة الجريدة وتحريرها . ونسمع أحاديثه العذبة فى السياسة والفلسفة والمنطق وفى الأدب العربى أيضاً . وكنا نتخذه نموذجاً

لأنفسنا . ونقيس المثل الأعلى به عندما كنا نطمح إلى المثل الأعلى فى الحياة . وعرفته حين كنا تلميذين فى الكتابة الأدبية والصحفية لأستاذنا أحمد لطفى السيد . كان كلانا يكتب فى الجريدة . كان طالباً فى كلية الحقوق ، وكنت مجاوراً فى الأزهر ، ثم طالباً فى الجامعة المصرية . وافترقنا حين ذهب هو إلى فرنسا ليتم فيها درس الحقوق . ثم التقينا وقتاً غير طويل ، ثم افترقنا بعد ذلك حين ذهبت أنا إلى فرنسا لأتم درسى للآداب ، ثم عدنا فالتقينا مرة أخرى . ثم اشتركنا فى العمل فى جريدة "السياسة" كان لى رئيساً أو كان لى زميلا ، فلم يعرف قط للرياسة معنى . وإنما كان هيكل صديقاً للذين يعملون معه سواء أكان رئيساً أم مرؤوساً . كنا نلتقى مساء كل يوم ، فنتحدث ويجادل بعضنا بعضاً فى تحرير صحيفة الغد ، ثم نقتسم مايكتب فى هذه الصحيفة من الفصول ، ويخلو كل منا إلى فصله ، حتى إذا أتمه التقينا فقرئ ما كتبه كل واحد منا . وأقررناه جميعاً . وربما أصلحنا فى هذا الفصل أو ذاك . ثم تصدر جريدة السياسة بعد غد ، يرأس تحريرها هيكل ويشترك فى تحريرها نفر من أصدقائه وزملائه .

وكانت هذه الفترة فترة خطيرة فى تاريخ الحياة المصرية ، كانت فترة الصراع بين المصريين والإنجليز ، وكانت فى الوقت نفسه فترة الاختلاف بين المصريين حول وسائل هذا الصراع وحول وسائل التخلص من الإنجليز . وكنا نخاصم الإنجليز أحياناً . ولكنا كنا نخاصم المصريين فى تلك الأيام أكثر مما كنا نخاصم الإنجليز . صرفتنا الاختلافات بين الأحزاب عن الاختلاف بيننا وبين العدو المحتل ، وكنا نستبق فى خصومة الحزب الذى كنا نناضله وننافسه . وكنا نستبق أشد استباق : أينا يكون أنفذ قلماً وأمضى لساناً وأشد نيلا من خصمه . . .

وكنا نساق إلى المحاكم ، فكان يقضى علينا حيناً ، وكنا نبرأ أحياناً .

ولكننا كنا نثبت دائماً فى الخصومة . ولا يزيدنا الاضطهاد إلا قوة وشدة ومضاء . . .

وعرفت « هيكلا » بعد ذلك وزيراً للمعارف . وعملت معه زميلا وصديقاً . وأذكر أنى كنت معه ذات يوم فى مكتبه فى وزارة المعارف ، ورأيته متبرماً ضيق الصدر . لأن أحداً من الموظفين فى وزارته لا يستطيع أن يقول له « لا » فقلت له : أرأيتنى قلت لك يوماً « نعم » ؟

فقال : أما أنت فلم أسمع منك قط إلا « لا » .

قلت : فعز نفسك بـ « لا » هذه ، وثق بأنك لاتسمع منى دائماً إلا « لا » . . .

وأشهد التقينا قط إلا اختصمنا ، ولكنه اختصام الإخوة والأصدقاء .

كنا نلتقى فلا تمضى ساعة أو بعض ساعة حتى نختصم ، وكانت الخصومة التى كنا نؤثرها هى الخصومة حول كتابته وكتابتى .

كنت أتهمه بأنه لا يحسن العربية ، وكان يتهمنى بأنى أحسن العربية وأخطئ المعانى .

كان يقول : إنك تبلغ من تنميق اللفظ ما يشغل قراءك بألفاظك .

وكنت أقول له : ولكنك تبلغ من العناية بالمعنى ما يصد قراءك عن قراءتك ، لأن لفظك لا يروقهم . . .

فكنا نختصم دائماً فى هذا ، ولم نكن نمل هذه الخصومة . . .

وكان آخر عهدى بهذه والخصومة حين التقينا ذات مساء ، وقد أصدر قصته الأخيرة « هكذا خلقت » .

فقلت له : سأكتب عن هذه القصة .

قال : سأحتاط لما تكتب .

قلت : أفتريد أن أهاجم لغتك ؟

قال : أما هذه فدعها بينك وبينى !

وحين كتب عن هذه القصة كتب بحثاً مطولا لخصها أبرع تلخيص فمدح أسلوب هيكل الذى لا يتحدث إلى القلب والشعور وحدهما . ولا يتحدث إلى العقل وحده . ولكنه يتحدث إلى هذه الملكات كلها . و يتحدث إلى السمع بلفظ سهل عذب نقى برىء من التبذل والابتذال . و برىء من التعقيد والتكلف . ومن النصح البغيض . وبعد أن ناقشه فى بعض النقاط التى جاءت فى صلب القصة أخذ عليه بعض الهنات من لغته فقال :

« . . . وملاحظة أخيرة أذكرها ولا أقف عندها وهى أن صديقى هيكلا لم يرد أن يخالف ظنى به فيما يظهر ، فقد كنت أغيظه أيام الشباب بأنه يهمل الاحتياط للغته العربية بين حين وحين . وكان يرد على بأنى لا أحسن العربية ولا أجيد كتابتها ، وهو قد وفى بحقه على فإنه يهمل فى غير موضع حق اللغة ليتيح لى أن أذكره بأيام الشباب ، ومن يدرى لعله يحمل هذا الإهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين . وما أكثر ما يحمل على المطابع والمصححين . وهو على كل حال لا يستطيع أن يحمل على المطبعة ولا على المصححين إسرافه فى استعمال اسم الإشارة الذى طالما عبثت به من أجله لأنى أراه منافراً بعض الشىء للذوق المصرى الحديث . وهو " هاتيك " وما أكثر " هاتيك " فى قصة هيكل . ولو قد وضع مكانها "هذه" أو "تلك" لكان له فى إحدى هاتين الكلمتين مقنع وغناء » .

* * *

ولنترك موضوع لغة هيكل إلى كلمة « لا » التى كانت تثيره وجواب طه عليها . . . فمن سجوف هذه الدعابة اللاذعة أو هذا التحدى الصارم ترمز « لا » إلى ما تنطوى عليه نفسية هذين الأديبين العظيمين من شمم وإباء وحرصهما الشديد على أن يقولا ويسمعا كلمة الحق عالية مدوية فى جميع المناسبات وحتى فى أعصب الظروف . . .

طه حسين فى شتيت من آرائه

عاش طه حسين تيارات عصره بكثير من الجرأة والإخلاص ، يهدم ويبنى ، ينقد بقسوة ، ويداوى برفق ويقول كلمته الواضحة دون أن يتلجلج لسانه أو يضطرب جنانه مهما ادلهمت الأمور وعظمت الخطوب . . .

لم يمنعه جوه الجامعى وبيئته الأدبية التى عاش سنواتها الطوال تلميذاً وأستاذاً وعميد كلية ومدير جامعة ووزيراً ورئيس لجان وعضو مجامع علمية وممثل حكومته فى هيئات ثقافية عليا ، عربية وأجنبية — لم يمنعه كل ذلك أن يشارك فى أحداث عصره بمقالاته ومحاضراته وكتبه وندواته — يرقب تياراتها وملتوياتها واصطراع أهوائها برهافة حس الأديب وزكانة المفكر الأريب وعظمة الإنسان الحر المتمرد على كل وضع شاذ .

فحين يتناول موضوعاً من الموضوعات العامة لا يهجم عليه مباشرة بل يمهد له بحوادث وقصص من التاريخ البعيد — تاريخ اليونان والرومان وتاريخ الفرنسيين والعرب ، فيعكس صور تلك الأحداث على ما يواجه قومه ، وتكون الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية تارة مادة خصبة يرتكز عليها موضوعه . فإذا مهد لقارئه بهذا التسلسل التاريخى والفكرى هجم على الموضوع وخرج منه بنتائج ذات أثر ملموس .

ومقالاته التى انتظمتها بعض كتبه ، وهى مقالات كتبت فى زحمة الأحداث — مليئة بهذه الألوان التى أثارت القارئ العربى الذى تابعه خلال نصف قرن بلذة وشوق ، فيجد فى جمال أسلوبه وجمال عرضه لذة ما بعدها لذة ، ومتعة ما بعدها متعة .

وهو فى جميع كلماته يعطى العقل المكان الأفضل لمعالجة الأمور بروية ووضوح واتزان . . .

ولا بأس أن نمر مروراً سريعاً بشتيت من آرائه فى بعض هذه الأحداث التى مر بها الإنسان العربى فنلمح نفساً سمحة وعقلا يقظاً وفكراً ملتمعاً وقلباً يخفق بحب الخير والحق والعدالة التى تصون حقوق الإنسان وكرامة الإنسان . . .

وإذ كانت هذه الصفحات تضيق عما كتبه فى شتى الأحداث السياسية والاجتماعية — أحداث البيئة العربية وأحداث العالم المترامى الأطراف فلنقصر هذه الكلمات على شئون الأدب والفكر ، وشئون الحياة العقلية التى أعطاها الكثير من أدبه وعلمه . . .

أدبنا وأدب اليونان

فى صدد مقارنة أدبنا بالأدب اليونانى ، وهو به ضليع ، أشار إلى أن الأدب اليونانى القديم قائم بذاته ، حى بنفسه . فى حين أن أدبنا ظل متفاعلا مع الأمة العربية فى عصور كفاحها الطويل . . . قال :

« وفى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة لعله أراد أن يشارك فيها غيره من الآداب الكبرى قديمها وحديثها ، ولكنها تستبين على نحو أوضح وأجلى مما تستبين فى غيره من الآداب ، فقد عمر الأدب اليونانى القديم قروناً طوالا ، ثم ألقى بينه وبين الناس ستاراً . فلما استأنفت الأمة اليونانية الحديثة حياتها المعاصرة أنشأت لنفسها أدباً مهما تكن الصلة بينه وبين الأدب القديم فهو ليس جزءاً منه ولا استمراراً له ، فالأدب اليونانى القديم إذن حى بنفسه . أريد أنه لا يستمد حياته من أمة حية . تنميه وتقويه وتضيف إليه ، وإنما يستمد حياته من هذه الشخصية القوية التى وهبها له اليونان القدماء . . . فنحن حين نقرأ آثار هوميروس أو بندار أو أفلاطون لا نفكر فى الأمة اليونانية المعاصرة . ولا نصل هذه الآثار القديمة الخالدة بما تنتجه من الشعر والنثر ، وإنما نقرأ هذه الآثار وغيرها .

ونفكر فى الأمة القديمة التى أنتجتها » . . .

« . . . أما أدبنا العربى فقد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن ، واختلفت عليه فى أثناء هذه القرون خطوب كثيرة متباينة وجهته ألواناً من التوجيه وأخضعته لضروب من التطور ، ولكنه ما زال حيًّا قويًّا يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ، ويستمد حياته وقوته من هذه الأجيال التى لا تزال حية محتفظة بفضل من قوة ، والتى لا تزال ترعاه وتكلؤه وتنفخ فيه من روحها كما تستمد منه قوة وأيداً ، فهى تمنحه وتأخذ منه ؛ وهى تعيش عليه وتعيش له وتعيش به ، شأنها معه كشأنها مع ما يقوم حياتها المادية من الأرض والجبال والأنهار . فالحياة الزمنية للأدب العربى لم تنقطع ، ويظهر أنها لن تنقطع ، والصلة بينه وبين الأجيال المعاصرة فى بلاد الشرق العربى من الخليج إلى المحيط وفى بيئات عربية متفرقة هنا وهناك فى أقطار العالم القديم والعالم الجديد — هذه الصلة ما زالت قائمة متينة خصبة ، كالصلة التى كانت بين الأدب العربى والأمة العربية أيام المتنبى وأبى العلاء . . . ونتيجة هذا كله أن فى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة قوية ، بينة شديدة الوضوح ، تمكننا من أن نلاحظه ملاحظة مباشرة ، ونستقصى أطواره استقصاء حسناً ، فنحن نستطيع أن نبدأ هذه الملاحظة منذ أواخر العصر الجاهلى وأن نساير الأدب فى هذه الطرق الطويلة العسيرة المتفرعة الملتوية التى قطعها مسرعاً مرة ، مستأنياً مرة أخرى ، متثاقلا مرة ثالثة أثناء هذه القرون الطويلة ، حتى انتهى إلينا مثقلا بهذا التراث العظيم المختلف المتباين ، الذى يشتد بين أجزائه وعناصره التباين والاختلاف .

أدبنا قديم وحديث فى آن واحد

« فالظاهرة التى يمتاز بها أدبنا والتى تمكننا من درسه وتتبع أطواره ، هى أنه قديم جدًّا ، وحديث جدًّا قد اتصل قديمه بحديثه اتصالا مستقيماً

لا انقطاع فيه ولا التواء ، ففيه خصائص الآداب القديمة . وفيه خصائص الآداب الحديثة . وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه . وما يغنينا عن كثير من الفروض .

«أدبنا العربى كائن حى . أشبه شيء بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء والتى مضت عليها القرون والقرون . وما زال ماء الحياة فيها غزيراً يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض وفى فروعها الشاهقة فى السماء ...

مقوماته الأساسية

فلغته المعربة الفصحى مقوم أساسى من مقوماته . أو هى المقوم الأساسى الأول بين مقوماته . وقد انحرف كثير من الناس فى العصور القديمة . وفى هذا العصر الحديث عن هذه اللغة المعربة الفصحى . فأنتجوا آثاراً فيها لذة وفيها متعة ولكننا لم نعدها أدباً . ولم نر فيها سبيلا إلى هذه المرتبة التى نضع فيها هذه الآثار الرائعة والتى نستمد منها غذاء القلوب والعقول والأرواح ، وربما كان مما يفسر ذلك ويؤيده أن أدبنا العربى لا يهمل الأسماع إهمالا قليلا أو كثيراً . وإنما يعنى بها أشد العناية . فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً . وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به . ويلذ الأذن حين تسمع له . ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه .

«وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته . ورقة الأسلوب ورصانته . وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه ، ويزين فى الأذن وقعه — أساساً لكل هذه الخصال .

أدب الوحدة

« . . . وليس من شك فى أن توحيد الأمة العربية بظهور الإسلام قد أنشأ لها أدباً واحداً ، ووجه هذا الأدب توجيهاً جديداً . وليس من شك فى أن اصطدام العرب بغيرهم من الأمم قد أذكى فى نفوسهم وفى نفوس هذه الأمم خدمة الأدب والفن والعلم . فامتلأت الأرض معرفة ونوراً بفضل هذا الاصطدام وما نشأعنه من الاختلاط والامتزاج ؛ ومن معرفة العرب لغيرهم من الأمم ومعرفتهم لأنفسهم . ومن تعارف هذه الأمم فيما بينها وتعاونها راضية أو كارهة على ما كانت مضطرة أن تتعاون عليه من شؤون الحياة .

أثر الأحداث الجسام فى الأدب

« . . . ليس من سبيل أن ننكر أن للأحداث الجسام والخطوب العظام أثرها البعيد فى حياة الناس ، ومتى تأثرت حياة الناس فقد تأثرت آدابهم ، لأن هذه الآداب آخر الأمر ليست إلا تعبيراً عن هذه الحياة وتصويراً لها ، فإذا تغير الأصل تغيرت الصورة . وإذا تغير المعنى تغيرت العبارة التى تؤديه .

حرية الأديب

« الظاهرة الخطيرة فى أدبنا الحديث هى هذه الكرامة التى كسبها الأدباء لأنفسهم ولأدبهم والتى مكنتهم من أن يكونوا أحراراً فيما يأتون ويبدعون . هذه الحرية نفسها قد فتحت للأدباء أبواباً لم تكن تفتح لهم حين كان الأدب خاضعاً للسادة والعظماء ، وقد أثرت ظروف التطور الإنسانى فى توجيه

هذه الحرية فقد كان الأدباء القدماء يؤثرون السادة والعظماء بما ينتجون . فأصبح الأدباء المحدثون يؤثرون أنفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون . وكذلك عكف الأدباء على أنفسهم فحللوها وعرضوها . واستخرجوا من هذا التحليل علماً كثيراً ومتاعاً عظيماً . وكذلك فرغ الأدباء لفنهم فجودوه كما يريدون وكما يستطيعون وكما يريد الفن . لا كما يريد هذا السيد أو ذاك .

أدبنا إنسانى

. . . وكذلك عكف الأدباء على الشعب . فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه . ويعرضون نتائج هذا الدرس . ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من آثار . وهذا كله قد رفع الأدب إلى الصدق والدقة . وجعله إنسانياً لا فردياً . ووضعه حيث وضعت الآداب الحية الكبرى نفسها بحكم التطور الذى دفعها إليه ظروف الحياة الحديثة .

الكاتب المجيد

. . . والكاتب المجيد عندى هو الذى لا أكاد أصحبه لحظات حتى ينسينى نفسى . ويشغلنى عن التفكير . ويصرفنى عن التعليل والتحليل والتأويل . ويسيطر علىّ سيطرة تامة تمكنه من أن يقول لى ما يشاء دون أن أجد من نفسى القوة على أن أعارضه أو أقاومه أو أنكر عليه شيئاً مما يقول . حتى إذا فرغت من قراءة أثره الأدبى واضطررت بحكم هذا الفراغ إلى أن أفارق الكاتب وأشغل عنه وعن أثره وقتاً ما — استطعت بعد ذلك أن أعود إلى الأثر الذى بقى فى نفسى بعد القراءة ، فأفكر فيه وأخضعه للنقد أو التحليل والتعليل .

القرآن وتقويم اللسان

« . . . وليس فى التراث الإنسانى كله شىء يشبه القرآن الكريم فى تقويم الألسنة العربية حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين تلتوى بلغاتها المتباينة ، فالذين يحفظون القرآن فى الصبا ، ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقاً بالعربية ، وأقلهم تخليطاً فيها . ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون الكتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه وتجويد قراءته ، يرون فى ذلك محافظة على الدين وتقويماً لألسنة الصبية والشباب ، وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئاً منه أجود نطقاً بالعربية حين يتكلمون . وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها ، وقد أهمل حفظ القرآن وتمرين الصبية على قراءته وتجويده فى المدارس الحديثة حيناً ، فالتوت ألسنة الشباب وفسد نطقهم وضاقوا بدروس اللغة فى مدارسهم ، ثم أعرضوا عنها بعد الخروج من المدارس ، ثم مال كثير منهم إلى العامية فآثروها على الفصحى وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم ، ولأمر ما عاد القائمون على شؤون التعليم فراجعوا مناهج المدارس وبرامجها وجعلوا لقراءة القرآن وحفظه فيها مكاناً مرموقاً .

«والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصور كثيرة ، وظروف مختلفة . فقد تفرقت كلمة المسلمين فى السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم ، حكمهم الفرس فى دار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قروناً متصلة ، وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبى الأوربى يقهرهم مرة بالاستعمار والحكم المباشر لهم ، ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق فى الحضارة

مادية ومعنوية جميعاً ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوربية لإرضاء لحكامهم من الأوربيين والتماساً لما فى هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن . وكان هذا جديراً أن يمحق اللغة العربية محقاً . ويذهب شخصية الشعوب العربية . ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها .

«حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ولأنه قوام حياتهم فقرأه عامتهم وخاصتهم وحفظوا منه القليل والكبير ، ودرسه علماؤهم فى المساجد والمدارس ، واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه فى تعمق أن يدرسوا اللغة التى أنزل بها .

فنون الإعجاز فى القرآن

« . . . والقرآن كله من عند الله ، وهو وحدة فى روحه وإعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها .

«واختلاف مذاهب القول فى القرآن دليل قوى من دلائل الإعجاز . فللقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائماً إلى أصول معينة : إلى توحيد الله . ونبذ الشرك على اختلاف صوره ، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن ، والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن أجابوا دعوة الله . ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله . ثم هو يأمر الناس أن يقيموا حياتهم على هذه الأسس — حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرءون من الرذائل كلها كبارها وصغارها فلا يضمرون فى

أنفسهم منها شيئاً . وحياتهم الظاهرة فيما يكون بينهم وبين غيرهم من الناس فلا يظلمون ولا يستعلون ولا يؤثرون الشر وإنما ينبذونه ما استطاعوا إلى نبذه سبيلا ، ويؤثرون عليه الخير وحده فيحسنون إلى الوالدين ويتجنبون الإساءة إليهما حتى ولو كانا مشركين ، ففى هذه الحال يخالفونهما إلى الإيمان ويعاشرونهما فى الدنيا معروفا . ويبرون أولى القربى ويرحمون اليتامى والمساكين ويعطفون على الفقراء وأولى الحاجة ويعدلون فيما بينهم وبين نظرائهم من صلة ، والناس جميعاً نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية .

« فالفقير نظير الغنى ، والضعيف نظير القوى ، والرقيق نظير الحر ، لكل حقوق يجب أن تؤدى إليه ، وعلى كل واجبات يجب أن يؤديها . والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوى العالم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين، أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه وما يأتى من الأعمال وما يدع منها ومن أجل هذا يشرع الله للناس فى القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكاملة بينهم وبين الله ما عاشوا فى هذه الدنيا .

* * *

«والنفس المطمئنة التى ذكرها الله فى سورة "الفجر" ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية ، وإلى أن تدخل فى عباده وتدخل جنته إنما هى هذه النفس التى صدقت فى إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت فى سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حرباً ظاهرة أو باطنة .

وأما النفوس الأخرى التى لم تطمئن إلى إيمان ، ولم تستقم على ما أمرت به ، وإنما جارت عن القصد والتوت بها السبل فهى تظهر السلم وتضمر

الحرب فتعلن الإسلام وتضمر الكفر أو تضمر الإيمان ، ولكنها لا تثبت له ولا تقوى عليه وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات وتستجيب لشهواتها فتجور وقد أمرت بالعدل ، وتفجر وقد أمرت بالبر ، وتعصى وقد أمرت بالطاعة . . .

« كل هذه النفوس محاربة لله حرباً خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

«وفى بيان ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى الشيخان :

" لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " . يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب . فلو قد استحضر الإنسان هذا الإيمان لصده عن الفواحش . ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلها فتجور بها عن الطريق . ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحياناً فيندم ويأسى ويتوب إلى الله ويسأل العفو والمغفرة .

« إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله ، دعا الله فى القرآن فى تفصيل أى تفصيل وفى ترغيب للراغبين وترهيب للراهبين . وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان فى أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها . فلا غرابة فى أن تختلف مذاهب القوم فى القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضاً ، وإنما الغرابة فى التزام مذهب واحد من مذاهب القول فى التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف . وهذا التنوع فى مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية وفى غيرها أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

«فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب

وما يكون فيه من الشدة يقتضى أن يكون القول من القوة والأيد بحيث يملأ القلوب رعباً ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحدين فى الإنكار والعناد والمكابرة . وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع فى القرآن شيئاً كثيراً . واقرأ إن شئت من السور القصار فى آخر المصحف فسترى تصويه الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفس رهباً ورعباً . .

« وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفاً .

« ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز فى القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث .

رسالة الأزهر

« . . . الأزهر مشرق النور الدينى للبلاد الإسلامية كلها . وأخص ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها لا كما يفهمها جيل بعينه وكما تحققها العصور على اختلافها لا كما حققها عصر بعينه .

فالإسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعاً ، ويجب أن يكون رجاله الناشرون له ، الذائدون عنه ، الداعون إليه ملائمين كل الملاءمة بطبيعته السمحة التى تشجع التطور ولا تمانعه ، وتؤيد الطموح ولا تأباه ، وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث (١) .

---

(١) حديث لا يزال عالقاً بذهنى أذكره بمناسبة هذه الكلمة : فقد كنت مدعواً عند الدكتور هيكل فى مصيفه فى الإسكندرية سنة ١٩٣٩ ، ودعا غير واحد من خلص أصدقائه فى طليعتهم أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وجرى =

الدين الإسلامى

« . . . فالدين الإسلامى كان وسيكون دائماً أساس الحياة الخلقية للأمة الإسلامية . وقد كان فى عصر طويل أساس الحياة السياسية والعملية لهذه الأمة أيضاً . وهو الآن وسيكون دائماً أساساً لهذه الحياة السياسية والعملية إلى حد بعيد . فلموقفه من الحرب والسلم أثر ظاهر فى تقويم موقف الأمم الإسلامية من الحرب والسلم . وموقف الإسلام من الحرب والسلم رائع حقاً . فبين اسمه وبين السلم صلة لا تخلو من مغزى . والإسلام دين رحمة وبر . ودين أمر بالمعروف وترغيب فيه ودعوة متصلة إليه . وهو كذلك دين عطف وإحسان . وهو كذلك دين يأخذ بالعفو ويأمر بالعرف وبالإعراض عن الجاهلية . وهو من كل هذه النواحى دين السلام الخالص .

«ولكن الإسلام فى الوقت نفسه دين كرامة وعزة . فيه الاعتراف

=حديث عن إصلاح الأزهر ، فأبدى كل واحد رأيه فى طرق الإصلاح . ودام الحديث قرابة ساعة دون أن يتفقوا على رأى واحد . وكان أستاذ الجيل يسمع ويناقش وينقض الرأى تلو الرأى بنزعة الفيلسوف الذى يلتمس الإصلاح الحاسم من أقرب الطرق ، وكان رأيه أن إصلاح الأزهر لا يكون إلا على يد أحد أبنائه الأقحاح الذى عاش فى جو جامعى من أجواء جامعات الغرب ، وسرعان ما قال : لو أن الأمر بيدى لعينت طه حسين شيخاً للأزهر وأعطيته كافة الصلاحيات ليهدم ويبنى ويتيح للأزهر أن يقوم بأداء رسالته السامية فى خدمة الإسلام .

وقد أثار هذا الاقتراح دهشة الحاضرين فانطلقت أشداقهم بضحكات عالية وأخذوا يعلقون عليه بروح مرحة ونكات قاسية لا سيما أنهم تصوروا طه حسين قد لبس الجبة والعمامة وأخذ يعيد النظر بالبرامج العتيقة ويخطط لإصلاح جذرى مهما كان لونه فسينظر إليه نظرة سخط وازدراء من الحشويين الجامدين ! . .

بالشخصية الإنسانية — بشخصية الفرد وشخصية الجماعة. وفيه الاعتراف بأهم ما يقوّم هذه الشخصية من الحرية فى الرأى والقول والعمل جميعاً.

شعر الحب

« . . . كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسراً، وكانت أحاديث الحب لاتثير سخطاً ولا عبوساً. وإنما تثير رضاً وابتهاجاً. وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان. وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة، وإنما كان جداً خالصاً لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان. فلم يكن حب الغزلين فى شمال الحجاز وفى نجد لهواً ولا مجوناً، ولا مصدراً للدعابة. والفكاهة وإنما كان جزءاً من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين: فدفع إليه الغزلون فى شىء من التصوف، لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى القديم، ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعاً به: لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما صغائر الحياة، ويعزبها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع، على أن هذا الهيام الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز، لم يتردد فى أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة. فقد كان شعر جميل وكُثَيِّر والقيسين ينشد فى المسجد الحرام وينشد فى المسجد النبوى ويستمتع به فى هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رواية العلم والدين. لا يجدوه فى ذلك حرجاً ولا جناحاً، وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كاد ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه: فشقى بالحب إن كان الحب شقاء، ونعم بالحب إن كان الحب نعيماً. وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة، إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة . . .

الحضارة والفنون الجميلة

« . . . فالشعوب لا تعيش فى هذه الأيام بالتهريج ولا ترقى باللعب ولا تنهض بأعباء الحياة وهى نائمة كاليقظة ويقظة كالنائمة . والحضارة التى تلائم الحياة الحديثة شىء كامل لا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر ؛ وإنما يؤخذ كله أو يترك كله . . . فالذين يأخذونه كله هم الذين يحيون ويرقون ويفرضون أنفسهم على الزمان وعلى غيرهم من الناس ؛ والذين يتركونه كله أو يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتون أو يخملون أو يتعرضون للاستذلال والاستغلال ويطعمون الناس فى أنفسهم ووطنهم ومرافقهم كلها . . .

«وفى الحضارة الحديثة كثير من النقائص ، وكثير من الآثام . ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد فى إصلاح هذه النقائص وهذه الآثام تنقية الحياة الإنسانية من كل شائبة تنقص من قدرها فإذا دعونا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة فنحن لا ندعو إلى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام ، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نقص أو إثم وإنما سمعنا دائماً ، وعرفنا دائماً أن الفن الجميل كمال ونقاء . فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الأذواق .

رسالة الأدباء

« . . . ولا بد من أن نلاحظ أن الذين طوروا الذوق الأدبى فى النصف الأول من هذا القرن لم يكونوا كما يظن كثير من الناس فى هذه الأيام يعيشون فى البروج العاجية ولا يعتزلون الحياة الشعبية ولا ينأون بحال من الأحوال عن آلام الناس وآمالهم ، ولا يهملون قضيتهم وطاقاتهم . وإنما كانوا يعيشون مع الشعب بل يعيشون بالشعب وللشعب . يعيشون له لأنهم

كانوا يعربون عن ذات نفسه . يصورون له آماله ليحرص عليها ويجد فى تحقيقها ، ويفتحون له آفاقاً جديدة من الأمل ليسرع إليها ويمعن فيها . ويصورون له آلامه ليبرأ منها ويضع عن نفسه أثقالها .

« وأيسر القراءة فيما كانوا يكتبون تبين ذلك فى غير لبس ولا غموض ...

« فهم الذين صوروا له الاستقلال وزينوه فى قلبه .

« وهم الذين بغضوا إليه الاحتلال وأثاروه على الإنجليز .

« وهم الذين كرهوا إليه الاستبداد وأطمعوه فى الحرية وأغروه بالإلحاح فى طلبها .

« وهم الذين أعدوه للثورة وأسخطوه على حياة سيئة كان يحياها وهيأوا ضميره ليسرع إلى الخبر حين يدعى إليه . وينصرف عن الشر حين يرد عنه ، ويتقبل الإصلاح حين يعرض عليه .

« وهم قاوموا الاستبداد ولقوا فى مقاومته ضروباً من الأذى وفنوناً من النكر .

« وهم قوموا المعوجين من الحكام ، وجدوا فى صرف الشعب عنهم وتزهيده منهم .

« فعلوا كل هذا وتقبل الشعب منهم مافعلوا ، واستجاب الشعب لهم حين دعوه ، واستمع لهم حين تحدثوا إليه ، وآية ذلك أنه كان يقرأ لهم حين يكتبون ، ويسمع لهم حين يخطبون أو يتحدثون .

« وهم على كثرة ما فعلوا وحسن ما أبلوا قد احتفظوا للأدب العربى بروعته ونضرته » .

* * *

وأقف عند هذه الخواطر ، فكتبه متداولة مقروءة ، وقد أردت أن أختتم هذه الرسالة بلمحات من آرائه المنتثرة فى الصحف والمجلات التى

تصور بعض نزعاته التجديدية وآرائه الجريئة التى واجه بها قراءه بصدق وإيمان .

٢٧

أمنياته بعد بلوغه الخامسة والسبعين

لا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يصاصل تليفون بيته من مختلف الزائرين يطلبون موعداً لمقابلته . ومع ترحيبه بكل زائر . كان يضيق أحياناً بلجج الصحفيين وأسئلتهم . ومع ذلك ، فما رد أحداً قط ، بل كان الفيض الثر الذى يجيب عن أسئلتهم مهما كانت محرجة .

فحين بلغ الخامسة والسبعين من عمره سأله أحد الصحفيين عن أمنياته ومشروعاته فأجاب :

كلما مر عام من حياتى واستقبلت عاماً جديداً . كان الشعور الذى أجد واحداً ، ولا سيما منذ بلغت الستين . وهو أن الحياة تمضى دون أن أشعر فى يوم من الأيام بالرضا عن نفسى والاطمئنان إلى أنى أديت ما كان ينبغى أن أؤدى من الواجبات لنفسى ولأسرتى ولوطنى . بل للإنسانية آخر الأمر . . .

وقد بلغت الستين وجاوزتها إلى السبعين ، ثم دخلت فى العقد الثامن من عمرى . ولم أشعر قط أنى أديت إلى الله حقه على . فأنا غارق فى التقصير والقصور إلى أذنى ، وأسأل الله الغفور العافية . . .

وتطرق حديث الصحفى إلى مشاكل الأدب فسأله عن موقف النقد من أدبائنا اليوم وهل يؤدى رسالة صادقة خالصة للتوجيه والتقويم والبناء . . .

فقال بكثير من التواضع :

لا أدرى ذلك ، ولعل ضعف النقد هذه الأيام يرجع مصدره إلى

ضعف الحياة الأدبية كلها . فإذا سألت عن مصدر هذا الضعف فى الحياة الأدبية فهو عندى ناشئ من أن أدباءنا لا يقرءون كما ينبغى أن يقرأ من قديم الآداب الإنسانية وحديثها ، والله المسئول أن يلهم أدباءنا الرشد ، ويهديهم إلى أن الأدب ما هو إلا نتيجة الثقافة الواسعة إلى أقصى حدود السعة العميقة .

ثم سأله عن سجل حياته الخالدة . . . وهل من لحظات تقف عندها بالشباب وقفة تلقى من تجاربها توجيهاً سديداً فقال :

أنا لا أعرف أن لى سجلا خالداً ، ولو عرفت ذلك ، لكنت به سعيداً ، وكل الذى أعرفه عن نفسى أنى مقصر دائماً ، وقاصر دائماً عما يرضى الله والناس ، فإذا كان للشباب أن يعتبروا فليجتهدوا فى أن يكونوا خيراً منى . . .

وفى صدد أحاديثه عن الصحافة اليومية سُئل رأيه بمستواها الأدبى ، وكان قد أجاب عن هذا السؤال غير مرة فقال :

آسف أشد الأسف أن صحفنا اليومية لا تعنى بما يثقف العقول ، ويذكى القلوب ويصفى الأذواق كما كانت تعنى من قبل ، وإنما هى كلفة بالأخبار من جهة ، وبالأدب السهل الرخيص من جهة أخرى .

* * *

ويهتبل الصحيفون المناسبات لاستطلاع رأيه فى قضايا الأدب والفن .

فقد كان معتزماً أن يحضر المؤتمر الاستثنائى لمجمع الخالدين الذى عقد فى بغداد بصفته رئيس المجمع اللغوى إلا أن توعك صحته من جهة وركوب الطائرة التى يخشاها من جهة أخرى [1] حالا دون ذلك ، ولا سيما أنه قد بلغ

---

(١) لم يركب الدكتور طه الطائرة إلا ثلاث مرات فى حياته : الأولى بعد انعقاد مؤتمر الأونسكو فى بيروت ، والثانية عند ما طار من جدة إلى مكة على

فى هذه الفترة ـ الرابع عشر من شهر أكتوبر ـ ١٩٦٥ عامه السابع والسبعين .

وقد طرح عليه محرر مجلة آخر ساعة الأسئلة الآتية :

ـ كثير من الناس يفتقدون رأيك فى عدد من القضايا المطروحة . فلماذا لا تتكلم ؟

ـ أية قضايا ؟

ـ مثلا : فى مؤتمر بغداد القادم سيلقى الدكتور مراد كامل بحثاً فى اللغة العربية كلغة عالمية . فما رأيك فى هذه القضية ؟

فأجاب بسرعة :

ـ هذا موضوع خطير جداً . وسبق أن ألقيت فيه محاضرة فيما مضى . . .

ورأيى أن اللغة العربية كانت بالفعل لغة عالمية ، فاللغات العالمية قديماً كانت ثلاث لغات فقط : اليونانية واللاتينية . ثم العربية بعد فتوح الإسلام .

وفى العصر الحديث كانت اللغة الفرنسية عالمية قبل الحرب . ثم غلبت بعدها الإنجليزية . . . وما تزال . . . وفى الأمم المتحدة الآن أربع لغات عالمية : الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . . . ونحن نجاهد لكى نضيف العربية إليها . ومما يساعد على ذلك أن يلتقى العرب أولا حول قضايا الفصحى ووسائل نشرها وتغلبها على العامية .

وسأل عن السينما والمسرح فأجاب :

ـ أنا لا أحب السينما . كنت فى الماضى أذهب إليها فى الصيف .

= رأس اللجنة الثقافية للجامعة العربية ، والثالثة عند ما انتقل من روما إلى تونس ليرأس أول امتحان لمدرسة المعلمين فيها .

فى الهواء الطلق . . . وأشاهد الأفلام الفرنسية التى كان ممثلوها يمتازون بحسن الإلقاء !

أما المسرح ، ففى اعتقادى أنه تقدم ، ولكن اللغة العامية ، بكل أسف تسوده ، وأنا لا أقبل الاستماع إلى الروايات التى تمثل بالعامية . فالمعركة بينها وبين الفصحى على المسرح معركة قديمة . ولى منها موقف معروف . وهذا التخلف فى رأيى يعود إلى بعض الشبان الذين يكثرون من العامية بالقدر الذى يهدد اللغة الأم . كما أن الذين يؤلفون للمسرح الآن لا يتعمقون القراءة ، ولهذا لا يجيدون تقديم الأعمال الفنية ، سواء فى المسرح أو فى السينما . يخيل لى أن مستوى التعليم فى الجامعات ليس كما ينبغى !

— وقضايا التفرغ ؟

فأجاب :

— أنا لا أومن بالتفرغ . وكنت أول من اعترض على مشروع تفرغ الأدباء ، فالأدباء تعودوا من قديم شظف الحياة . وينذر أن تجد أديباً ثرياً . وقد رفضت قبول رئاسة لجنة التفرغ أيام أن عرضها على الدكتور ثروت عكاشة ، وما كان هذا الرفض إلا لإيمانى بعدم جدوى التفرغ للأديب !

وسأل عما إذا كان يوافق على ضم المرأة إلى عضوية مجمع اللغة العربية فقال :

— لم لا . إننى أوافق على قبولها ، وإن كان المجمع الفرنسى ما زال — حتى الآن — خلواً من الستات !

وقد كنت أنا أول من عرض على لطفى السيد قبول الطالبة فى الجامعة . وكانت أول كلية قبلتها هى كلية الآداب . وقبلت مجاناً لتشجيع زميلاتها . وأذكر أن لطفى السيد سألنى أيامها : هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات ؟

فأجبته : القانون يقول إن الجامعة للمصريين . ولم يحدد النوع !

ويعود الدكتور إلى ذكريات أبعد . فيتحدث عن لقاء المرأة بالرجل فى الصالونات الأدبية بفرنسا .

وقد عرف هو شخصياً آخر هذه الصالونات . وكان يتردد عليه أناتول فرانس . واضعاً فى قبعته طاقة من البنفسج يقدمها لسيدة البيت مع قصة لا تتغير أبداً . وهى أنه كان مارًّا بالصدفة بمحل للزهور . فأعجبته الطاقة واشتراها لها .

وفى صدد انتقال مركز الإشعاع الثقافى من القاهرة إلى بيروت قال :

ـ أنا لا أظن أن هناك بلداً آخر يتفوق على القاهرة الآن . وأرجو ألا يكون فى المستقبل . وحكاية القاهرة وبيروت هذه حكاية قديمة . فقد سألونى مرة وأنا هناك « أنت تفخر بما يصدر عن بيروت من إنتاج أدبى » . . . فأجبتهم بأنى أقول ذلك حتى أنبه المصريين . فأنا أريد للبلاد العربية جميعها أن تتنافس فى تعمق الثقافة (١) .

---

(١) وقد أثار حديث الدكتور دهشة الأدباء ، فى مصر وسورية ولبنان والعراق وربما فى بعض العواصم العربية ، وأذكر أن الأستاذ رشدى معلوف المحرر الأدبى لجريدة « الجريدة » اللبنانية ، وهو أديب وشاعر ، لم يهضم هذا الرأى الذى صدر عن عميد الأدب والذى طغت فيه مجاملته وكياسته على صراحته المعهودة فعلق عليه بكلمات أوضح فيها حقيقة الأدب اللبنانى فقال :

لست أدرى ، والله ، هل يسخر عميد الأدب العربى منا أم يتلهى بإحداث ضجة كالتى أحدثها يوم أصدر كتابه عن الشعر الجاهلى .

فلقد بدأ الكثيرون فى لبنان يعتقدون ، مع الأسف ، أنهم زعماء الأدب العربى . وأخذ عدد وافر من المحاضرين فى مختلف الأندية ، والمتحدثين فى كثير =

وختم المحرر حديثه عن حيوية الدكتور طه بقوله :

= من الأوساط يستشهدون بمقالة طه حسين فى إقرار الزعامة لبيروت .

ويعذرنى الدكتور إذا قدمت له صورة صحيحة عن الأدب فى بيروت ، وتعذرنى بيروت إذا قلت إنها « شنغهاى » قبل أن تكون عكاظاً !

ونتلفت شطر الإنتاج والتأليف اللذين جعل الدكتور لبيروت القسط الأوفر منهما ، فنسأله ، وهو منا ، أن يقول ولا محاباة : أى مؤلف أصدره لبنان فى الخمس والعشرين سنة الماضية ، يستحق أن ينسب للأدب الحى ، أو ينتمى إلى دوحة الفن الخالد ؟

فالكتاب اللبنانيون عموماً يجهلون الكتابة باللغة العربية الخالصة من شوائب اللحن ، ومظاهر العجمة ، وينحرفون بها عن أساليبها المعروفة لها فى الخبر والبحث ، فنرى بعضهم يؤخر مثلا فعل القول عن المقول اقتداء بالفرنجة لا من قبيل تطويع العبارة لمقتضيات المعنى بل زيادة فى الشعوبية وإغراقاً فى التشيع للغرب .

والكتاب اللبنانيون قد أفلسوا إفلاساً شنيعاً فى ميدان القصة القصيرة ، وفى مجالات الرواية ، فضحل إنتاجهم وسقطت بضاعتهم عن مجاراة أى بضاعة من هذا النوع . لا فى العالم العربى وحسب بل فى مختلف أنحاء الدنيا .

وقد أفلسوا كذلك فى النقد فلم يصدر مؤلف واحد يستحق الذكر بعد كتاب « الغربال » الذى أصدره ميخائيل نعيمه منذ حوالى عشرين سنة . ولا يعنى هذا أن النقد فى لبنان قليل ضئيل ، فهو يملأ الصحف والمجلات ولكنه يضرب على سنداد واحد . ويطلق رنة واحدة مبطنة بالرغبة فى الظهور والطمح بالشهرة العريضة من باب الجهد الضيق والجهاد القصير !

ثم قال : والكتاب اللبنانيون عموماً قصار النفس ، كسالى ، يتأكلهم جوع رهيب لما فيه الدعاية لأنفسهم ، والإفادة مما لاحق لهم فيه من تقدير واحترام وإعجاب ، حين لا يستطيع إلا نفر ضئيل منهم أن يهز المشاعر ، ويغذى =

إنه يقضي يومه كله بالقراءة : إنه يقرأ ست ساعات مع سكرتيره فريد شحاتة . ومن الثالثة إلى الخامسة مع قارئة بالفرنسية . ومن العشاء إلى الحادية عشرة مع السيدة زوجته .

= القارئ بما تفيد منه ثقافته ، وتستقيم منه ذائقته !

أما الشعراء اللبنانيون فقد سكت شيبهم وتخلع شبانهم ، حتى نترى الجيل الجديد من هؤلاء يطلع بشعر مائع تعبق منه روائح المرض النفسي العضال ، والميوعة الخلقية المنحطة التي لا تعرف من الشعر إلا التغني بالمتعة واللذة « واليسيدو — رومانطيقة » القائمة على نعت الطبيعة اللبنانية بما قيل فيها من قبل ألوف المرات ، وتتشدق في إبراز بعض اللوحات اللبنانية فتقصر في ذلك التقصير كله عن شعراء العامية الذين يقولون الزجل على مسارح الطرب ارتجالا .

هذا بصرف النظر عن ضعف التركيب ، وفقدان الذوق في اختيار الألفاظ المتناسقة المنسجمة مع المعاني ، والخروج خروجاً ضعيفاً عن الأوزان العربية للشعر ، والتلهي في قائم الشعر المنثور بخرز أزرق يحسب افتراء واعتباطاً في حساب الجواهر !

أما اليوم فما الذي ننتج ؟

إننا ننتج قصصاً عقيمة . . .

وأين شعراؤنا من شعراء الشام والعراق ؟

وأين ما ينتجه كتابنا مما تنتجون في مصر ، كالصادر كل يوم على طروس العقاد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل وغير هؤلاء ممن عرفتهم في دوحة إنتاجكم ومجالي حياتكم الحافلة بالرفيع من تحف البلاغة والثقافة ؟

وأما أن تتحدثوا بالمجلات التي تصدر عندنا ، فهذا لا يشيع بوارق الأمل على صحراء الأدب في لبنان ، ما دامت هذه المجلات تستنجد بالكثير من النتاج المصري العراقي ، السوري الأردني ، لتوفير المواد اللازمة . =

على أنه قد يسهر إلى ما بعد هذه الساعة ، وربما ليؤكد أن حكاية معركته مع الشيخوخة خرافة .

ولماذا يشيخ هو وحده ؟

لقد عاش لطفى السيد إلى ما بعد التسعين ، وإلى ما بعد التسعين أيضاً كان برنارد شو يكتب ، وفرانسوا مورياك ظل يسخر من الشيخوخة حتى الثمانين . والشيخ حسن مأمون مازال يركب الطائرة وهو أكبر من طه حسين بست سنوات . وأحمد حسن الزيات يقف على أبواب الثمانين ، ولكنه يصعد سلالم المجمع بخفة شاب فى الثلاثين .

ثم إن الفكر لا يشيخ .

وعقل طه حسين ما زال ينبض كما تنبض قلوب الشباب !

= هذه أحوال الأدب فى لبنان .

وقد ختم مقاله الذى أثار عليه نقمة أدباء لبنان بقوله :

هذا ما أردنا أن نطلع الدكتور طه وغيره من أئمة الفكر فى العالم العربى عليه ، كى لا يقال إنه لم يبق فى لبنان رجل واحد يعترف بالحقيقة ويقولها . . وليعذرنا عميد الأدب إن تجرأنا للتصدى لبعض ما أملته عليه مطالعاته الأخيرة من استنتاجات تفرض زعامة الأدب على بيروت فرضاً . . وبيروت تنعب فى خرائب أدب لم تزل منذ ربع قرن تأتم بنوافل هديه . . .

* * *

هذا رأى أبداه الأستاذ معلوف قبل عشر سنوات ، ولا أعلم رأيه اليوم .

ولكن الشىء الملموس أن بيروت تخطو خطوات مذهلة فى حركة النشر ، وإن كانت دون مصر التى تعطى التحقيق العلمى والمنهجى حقهما من العناية ، وقد أراد الدكتور من إثارة الموضوع أن تتنافس الأقطار العربية فى نشر الثقافة على أوسع حدودها ومداها ، وستظل مصر ، فى رأيى ، هى الرائدة والزعيمة .

٢٨

انتخابه رئيساً لمجمع الخالدين

ويخلو مكان فيلسوف الجيل المرحوم أحمد لطفى السيد فى مجمع الخالدين فيتساءل الأدباء فى الأقطار العربية . ويهجس أعضاء المجمع . وكلهم صفوة رجال الفكر وأعلام اللغة وأساطين العلم والأدب — يهجسون فيمن يملأ هذا الفراغ الذى تركه الراحل العظيم .

ويدور الحديث سراً وجهراً.

وتعقد جلسة الانتخاب .

ويبحث عن الجهبذ الذى يستطيع بأدبه وعمق ثقافته وقوة شخصيته أن يتبوأ هذا المركز . وأن يتحمل تبعاته الجسام .

وما يكاد الأعضاء ينتهون من أحاديثهم ومداولاتهم . يستعرضون جهود الأفذاذ فى ميدان الفكر والأدب حتى ترتفع الأيدى لتعطى ثقتها إلى الأديب العظيم الذى عرفه الشرق والغرب — إلى الدكتور طه حسين الذى ما كاد يسند إليه هذا المركز ، ويجلس مكان أستاذه حتى يشكر زملاءه البررة على ثقتهم الغالية ، ويقرر أن ينهج نهجه ، وأن يسير بالمجمع السير الهادئ المتزن الذى يجدد العربية ويجعلها متجاوبة كل التجاوب مع ثقافة هذا العصر الذى يفاجئنا كل يوم ، بل كل ساعة ، بظاهرة من هذه الظواهر العلمية العجيبة التى تحتاج إلى مسميات ومصطلحات جديدة لن تضيق العربية بها مادام حماتها صفوة من الأعلام الذين استطاعوا فى نصف قرن من الزمن أن يعيدوا إليها رونقها . وأن يجعلوا منها لا أداة للتعبير عن الهواجس والعواطف والميول فحسب بل عن كل ما يصدر عن الفكر والعقل فى ميادين العلوم وشتى أنماط المعرفة . ومهما قيل فى هذا المجمع

وما ألصق به من تهم باطلة وحكايات مزيفة . فهو يقوم برسالته أحسن قيام ، ويؤدى للعربية أجل الخدمات

٢٩

تقليده وسام قلادة النيل

احتفت مصر ، فى الفترة التى أدون فيها هذه الخواطر بعيد العلم الثالث عشر ، وقد وزعت فى اليوم العشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥ الجوائز التقديرية والتشجيعية على الموهوبين من العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين ، وكان الدكتور طه حسين قد منح الجائزة التقديرية منذ بضع سنوات . واغتنمت الدولة ، وهو فى قمة مجده الأدبى والفكرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره المديد ، فمنحته فى هذا العيد وسام قلادة النيل وهو أرفع أوسمتها .

وإذ حال مرضه الطارئ دون حضور هذا الاحتفال العلمى ، فقد بعث الرئيس جمال عبد الناصر كبير أمنائه إلى بيته ليقلده هذا الوسام الرفيع باسمه تقديراً لأدبه ونضاله الكبير فى سبيل حرية الفكر . . .

وحين تماثل للشفاء هرع إلى القصر الجمهورى لقيد اسمه فى سجل التشريفات ولشكر الرئيس على تكريمه وقال : « لقد دهشت عند ما علمت صباح أمس بأننى سأمنح فى المساء فى احتفال عيد العلم قلادة النيل ، لأنه سبق أن حصلت فى أول عيد العلم على جائزة الدولة التقديرية للأدب ، فلما سمعت الخبر دهشت للتكريم الجديد . . . ويمضى الوقت ، وبمقابلة بعض الأصدقاء فهمت أن السيد الرئيس يريد أن يزيد فى تكريمى فى هذا العيد » .

وسألته الأهرام عن مدى هذا التكريم فى نفسه فقال :

هو الشعور بأصدق الشكر وأجمله هذا الفضل العظيم الذى أهداه إلى السيد "رئيس الجمهورية" . وأرجو من الله عز وجل أن يجعلنى له أهلا» .

وقال :

« إن العلم والأدب اللذين كرمتهما الدولة أمس هما قوام لعقل الإنسان المثقف وضميره » .

وقال :

« إذا كنت لم أحاول قط أن أصور لنفسى فلسفة للحياة فإننى أعيش مستعيناً بالله ، واثقاً به . مملياً حين أجد الحاجة إلى الإملاء والقدرة عليه .

« إن أمامى الآن شيئين أسأل الله المعونة على إتمامها ، أحدهما إملاء الجزء الثالث من " الفتنة الكبرى " . والثانى : هو إملاء الجزء الثالث من كتاب " الأيام " » .

ومن البداهة بمكان أن ينطلق قلبه ولسانه بالشكر العميق لهذا التكريم فقد مر فى عهد فاروق ، بأزمات خانقة حتى كاد يعضه الجوع مما اضطره أن يطبع كتبه فى بيروت ليتغلب على مصاعب الحياة . فى حين أنه اليوم فى العهد الجمهورى يلقى كل تكرمة يستحقها أدبه ونضاله .

وبعد :

فإن مجال الحديث عن طه حسين مجال واسع ، فهو سفر ضخم يرى الباحث فى كل صفحة من صفحاته ظاهرة جديدة فى حياتنا العقلية ، ومنذ أول كتاب أصدره عن « أبى العلاء » عام ١٩١٤ إلى كتابه الأخير « مرآة الإسلام » ١٩٥٩ — وقد أصدر أربعين كتاباً — منذ تلك الفترة لم يهدأ نشاطه ولا خفت صوته . فكان بحق الرائد الأول الذى أرسى

قواعد الدراسة الأدبية على أسس منهجية ، فعبد الطريق للكثيرين من الأساتذة والباحثين ، وفتح لهم نوافذ كانت مغلقة فولجوها مطمئنين .

نعم ، لا مجال ، فى هذه العجالة ، للحديث المطول عن أدبه وكتبه ومدرسته الأدبية وأثره فى جيله وتلاميذه وكفاحه المرير فى سبيل حرية الفكر ، وما لاقاه من عنت وهجوم واتهامات ، وصموده لها بروح سمحة نقية ، وإيمان صلب قوى . . . فموضوع ذلك غير هذه السطور التى اشتملت على جمع ما تناثر من كلمات لها صلة وثقى بمراحل حياته . . .

وقد ينكر علينا العميد لملمتنا هذه الخواطر والهواجس ، ولا سيما ما كان منها فى عهد التلمذة وطور الشباب ، وقد يضحك أو يهزأ منها . . ولكن فترات مرت من تاريخ حياته لا يمكن — وقد أهملها من « أيامه » — أن يهملها تاريخ الأدب ، والفضل فى ذلك لزملائه الذين نثروا بعض هذه الذكريات المخبوءه فأحسنوا أى إحسان لمؤرخى الأدب الذين قد يرون فى اللحظة العابرة صورة تكشف عن الكثير من الفجوات . . .

والرسالة بمجموعها ظلال من تاريخ حياة مليئة بظواهر العبقرية المبكرة والنبوغ الأصيل ، وكل ما أرجوه أن لا يجد السيد العميد فى مكر صديقه ، إذا اعتبر هذه التحية العبقة مكراً — ما يثيره ويغضبه !!

الفهرس

الصفحة

توطئة ٧
مكر الأصدقاء ٨
الكاتب الحر ٩
أثره فى وزارة المعارف ١١
ركود الأدب ١٢
سفره إلى البندقية لحضور مؤتمر الفنانين بدعوة من الأونيسكو وانتخابه مقرراً ١٤
خطابه فى المؤتمر عن دور الأديب فى تكوين الثقافات ومسؤليته أمام المجتمع . هل العمل الأدبى مهنة ؟ دور الكاتب فى المجتمع . ضمير الكاتب وحريته ١٧
أثر الثورة فى تطور الحياة العقلية . الثورة صورة صادقة تصور طموح الشعب للحياة الحرة الكريمة ٢٠
دعوته إلى فلورنسة لحضور مؤتمر السلام المسيحى . محاضرته عن الإسلام والمسيحية . وعن الصلاة والشعر وأثره فى نفوس القسيسين والرهبان ٢٤
من إيطالية إلى الحجاز . ومن البندقية وفلورانسة إلى مكة والمدينة . فى المسجد الحرام . مناجاة ربه بالدعاء الذى كان يتهجد به محمد صلى الله عليه وسلم ٢٩
الدور الذى لعبه العرب فى الحضارة الإنسانية وموقفنا من حضارة العصر ٣٣
الفصحى والعامية . لغة أهل الجنة . مع الشيخ بخيت . أدباء الشباب انتصارات الفصحى . ترجمة اللهجات . وحدة الفكر ٣٩

الصفحة

شعر الصبا ، صداقته مع الزناتى والزيات ، وتتلمذ هم على الشنقيطى والمرصفى . طه حسين يأخذ مكان حافظ إبراهيم فى عيد العام الهجرى ويلقى قصيدة كبيرة ذات مضمون سياسى واجتماعى ٤٣
مؤلف أغان ٥٣
نقده للمنفلوطى والشيخ رشيد رضا . بيتان لحافظ إبراهيم فى عقيدة طه حسين ٥٥
حرصه على كرامة الجامعة ، إسماعيل صدقى يطلب إليه منح الدكتوراه الفخرية لسياسيين ممالئين لعهده وللملك فيرفض ٥٨
تحمله تبعات ما يكتبه فى الصحافة ٦٠
موقفه من خصومه ٦٢
رأيه فى الصحافة قبل ربع قرن ٦٣
رأيه فى الشعر الحر ٦٥
الحياة الجامعية ومستقبلها فى العالم العربى ٦٨
نقل بعض مؤلفاته إلى عدة لغات ٧٢
كتبه الإسلامية تدحض آراء الذين اتهموه بدينه . . ٧٣
مع الخبير العالمى فى شئون المكفوفين ٧٧
آراء بعض تلاميذه فى منهجه الأدبى الذى طبع جيلا بأكمله . ٧٩
وفاؤه لأصدقائه ، بينه وبين العقاد . حزنه على وفاته ، رثاؤه ، رأى العقاد فى أسلوبه ٨٣
أمنياته بعد بلوغه الخامسة والسبعين ، أحاديث مختلفة عن الأدب والفن ، رجل دائم المطالعة برغم دلوفه إلى الشيخوخة . ١١٢
انتخابه رئيساً لمجمع الخالدين ١٢٠
تقليده وسام قلادة النيل ١٢١

وفى سلسلة اقـــرأ المزيد فى مثل هذا الموضوع

● **بايرون** للسيدة أمينة السعيد

تحدى تقاليد المجتمع ظنا منه أن الشعر يعصمه ، لكن المجتمع قضى عليه بالنفى والتشريد . . . ومع ذلك ظل عظيما ، وكانت له فى الحياة وفى الموت نزوات يعرضها هذا الكتاب فى رشاقة ولباقة واستناداً إلى أوثق المصادر . .

● **من أضواء الماضى** للأستاذ سامى الكيالى

جولة فى أنحاء الماضى . ووقفات عند الحكيم السهروردى الشهيد ، والأخوين الأمين والمأمون ، وخاتمة أحد الوزراء الأيوبيين ، ورحلة الأمير السورى فخر الدين المعنى . وغير ذلك من الوقفات . . .

● **بنت يزيد**

ترجمة الأستاذ سامى الكيالى والدكتور إسماعيل أدهم

صور من الحياة والآراء والمعتقدات فى بلاد بين البدو والحضر . وبين الأطلال والمدن . وبين عبادة الله وعبادة غير الله ، وبين الشهوة العارمة والعفة التامة ، وبين الفطرة الساذجة ، والمدنية الماكرة . .

● **النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ** للأستاذ سامى الكيالى

قصة حياة الجاحظ من طفولة ونشأة وأساتذة تتلمذ عليهم وآثار أدبية نفيسة أخرجتها عبقريته . .

[ثمن النسخة من كل كتاب ٥ قروش]

● **مع طه حسين « ١ »** للأستاذ سامى الكيالى

الجزء الأول من الكتاب . . . يحكى قصة حياة الدكتور طه حسين ويعرض كتبه الكثيرة ، ويقف عند كل كتاب وقفات . . .

ثمن النسخة ٥ قروش

● **دستويفسكى** للأستاذ حسن محمود

أحوج العيش هذا الكاتب العبقرى ألا يضع القلم من أنامله حتى أسلمه الإرهاق إلى الإعياء النفسى فرماه معاصروه بالعته . . ولكنه أبقى للإنسانية روائع يعالجها المؤلف ، كما يعالج حياته المملوءة بالعقاب ، والمتوجة بالمجد الأدبى الرفيع . .

ثمن النسخة ٥ قروش

● **الشاعر الرجيم بودلير** للأستاذ عبد الرحمن صدقى

هذا الشاعر أنهكته شهوة الجسد حتى كادت تقضى عليه ، وأنهكه الفقر حتى رثت ثيابه وكاد يموت من البرد . ولكنه عاش ، وأحب السمراء الفاتنة جان ديفال ، وأخرج ديوان أزهار الشر ، وصار شخصية سرت منها فى الأدب هزة جديدة كما قال عنه فكتور هوجو .

ثمن النسخة ٦ قروش

دار المعارف بمصر

تقدم هذه المجموعة من الكتب للأستاذ سامى الكيالى

● **الأدب العربى المعاصر فى سوريا**

(من مكتبة الدراسات الأدبية)

لأول مرة يكتب تاريخ الأدب فى سورية خلال قرن كامل من عام ١٨٥٠ إلى عام ١٩٥٠ ميلادية

طبعة جديدة ومزيدة تحت الطبع

● **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**

(من مكتبة الدراسات التاريخية)

سيرة بطل من أبطال العروبة والإسلام عاش حياته يحارب البيزنطية ويدفع عن بلاد الإسلام غزوات الروم . .

٢٣٦ صفحة . قطع كبير الثمن ٤٠ قرشاً

● **ولى الدين يكن** (من مجموعة نوابغ الفكر العربى)

سيرة شاعر من كبار شعراء مصر الذين أبلوا بلاء حسناً فى سبيل حرية الشرق وكرامته . .

١٢٠ صفحة . قطع متوسط الثمن ١٥ قرشاً

● **السهروردى** (من مجموعة نوابغ الفكر العربى)

حكيم مسلم متصوف احترق قلبه فى سبيل الوصول إلى الحقيقة وإلى المعرفة وإلى الحب الإلهى .

١١٤ صفحة . قطع متوسط (طبعة ثانية) الثمن ٢٠ قرشاً

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم أجمل هدية عند ميلاد الطفل وفى أعياد الميلاد

طفولتى

بقلم الدكتور أبو الفتوح رضوان
والدكتور ممدوح جبر
و ريشة يوسف فرنسيس

- سجل جميل فاخر بالألوان الجذابة والرسوم واللوحات البديعة .. تدون فيه الأم و يدون فيه الأب ذكريات الأعوام الستة الأولى من حياة الطفل العزيز . . بالكلمة والصورة . . وبطريقة سهلة ليس فيها عناء .
- مرشد للأم . . يوجهها بطريقة غير مباشرة إلى ما يجب عمله فى العناية بالطفل . .
- دليل للأب . . يزوده بالأسلوب التربوى والنفسى الذى يعامل به الطفل . .
- هدية قيمة باقية . . . ذكرياتها عزيزة . .
يقدمها القريب ، والطبيب ، والصديق .

٩٦ صفحة . قطع كبير (غلاف مجلد فاخر) الثمن ١٢٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعارف

٤٠٣٢٤٤